اللّٰه المستعان

رواية

مطحنة الصمت 2.. حيث الصدى لا الكسر

ثابت خربيش

بسم الله الرحمان الرحيم

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا

تنويه:

الرواية قائمة بذاتها

الله المستعان

–الرواية ضرب من الخيال–

غموض داكن

في ذلك الحين كان الجو رائع، دافئ نوعا ما، النسيم يدخل من نوافذ السيارة ويضرب وجهيهما من حين لآخر، الطريق العام كان مزدحم مساء بالسيارات والشاحنات، مما جعل سليم يتأخر في الوصول، وعندما وصل الى المقبرة مع مجيد أوقف السيارة بجانب الرصيف ونزلا منها، ثم وهما يدخلان بابها الكبير، يجدان حارس القبور هناك يتوضأ، كان بصدد أن يصلي صلاة العصر، فذهب إليه ممسكا يد ابنه:

– السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، نصلي معا؟

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أجل بكل تأكيد

– حسنا دقيقة أتوضأ، مجيد تعال.. هيا توضأ معي سنصلي مع عمك يتحرك.. وهو ينظر الى الحارس:

– مرحبا عمي أنا بخير

– مرحبا بني العزيز وأنا كذلك

وبعد أن أكملا الوضوء صلا معا في مكان صعب اكتشافه كان بجانب المقبرة، كثيف فيه أشجار كثيرة، لو رأيت أعلاه لرأيت أغصان الشجر وأوراقها دون أن ترى السماء وبروجها، كان الحارس قد أخذ مثابة الإمام، وسليم وابنه وقفوا خلفه وهم يصلون، وحينما أكملوا الصلاة بعد فوات

دقائق قليلة ذكروا الله قليلا، ثم نهضوا وأكملا طريقهما والمرور بجانب القبور، كانا قد وصلا بعد قطع أمتار فقط، الى والدا زوجته هيلينا، فوقفا يدعوان لهما، كان سليم قد عرفهما للولد، ثم أكملا متجهين الى قبر صاحبه خال ابنه، وحينما وصلا وقفا على قبره الذي وجدا فيه عشب أخضر مبلل بمطر السماء، كان وقتها قد تغير يكاد لا يعرف لولا اسمه، على كل، ألقى عليه التحية، وإذا به يبدأ بالدعاء وهو يرفع من صوته حتى يسمعه ولده ما يقول، بنية التعلم ويردد ويناجي!

– اللهم إني أسألك يا الله بأنك الواحد الأحد، الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا أحد، بأن تغفر له جميع ذنوبه، وترحمه، وترأف به، وتعفو عنه، وتطهره يا رب، اللهم يا أرحم الراحمين، ارحمه، وأدخله جنة الفردوس يا رب العالمين، إنك على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، والصلاة والسلام على البشير النذير، محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم

كان مجيد ينظر إليه ويسمع ما يقول، فيردد معه بصعوبة وبصوت خافت، كان لا يعرف الدعاء كثيرا، حتى أباه قد شعر بذلك وهو بجانبه:

– هيا بني، ألك شيء آخر تقوله!

– يلزم الصمت ويده على يد أبيه، ربي يرحمنا

كانت الساعة وقتها حوالي الخامسة والربع مساء، الشمس قد أوشكت أن تختفي من وراء الجبال، الطيور كانوا يتجولون في تلك الأشجار التي

كانت تحيط بالمقبرة، لكن دون إصدار صوت زقزقة، وكأنهم يعلمون قيمة المكان! الحارس كان جالس أمام الباب يفكر، لا أدري فيما كان يفكر، كان شيخ قصير القامة، نحيف، ذو لحية بيضاء كبيرة، ملامح وجهه تدل على الوقار والثبات. وعندما أوشكا مغادرة المقبرة، تبين أنه كان هناك رجل يقطع الطريق الثانوي الموجود أمامها، على كتفه عصا مربوط فيها كيس، كان ذو هندام اسود وقبعة صفراء، قصير القامة، محدودب الظهر، ليس بالبعيد، كان يبعد عنه حوالي عشرون متر، رآه وأحس به حينما وصلا الى سياج المقبرة، ولقد أثار غرابته عندما رآه لا يلتفت لأحد، رأسه أسفل الأرض ويمشي.. وبصدد دخوله الى المقبرة توقف سليم قليلا، ينظر اليه بعينين مذهولتين متعجبتان، من هذا الرجل الغامض الذي دخل الآن، لا تحية، لا نظرة، لا شعور، ولا اطمئنان، ولا بشارة وجه! كان يبدو حزين ويصعب الحديث معه، وكأنه أبكم، يحمل في داخله الكثير من الأسرار، والمواقف والأعاجيب، على كل، أكمل سليم الخروج من المقبرة الى أن وصل الى سيارته فركبا، ولكن عندما وضع مفتاح السيارة ليشغلها توقف هنيهة وظل يفكر تفكير عميق، قائلا في قرارة نفسه:

–لا يلقي التحية، لا ينظر حوليه، لا ينظر خلفه، ولا يشعر احد بشيء، لا يحدث صوت.. وفي جعبته شيء، يحمل عصا ولا يتكئ عليها! يأتي في

وقت متأخر ولا يخشى قدوم الظلام، أليس هذا أمر غريب ويثير الفضول؟! مجيد انتظر سأعود..

– حسنا أبي

نزل ثم رجع بخطى ثابتة وعقل هائم شارد بحاجة الى إجابة، خصوصا أنه كان يتمتع بحب الاستطلاع، فوجد الحارس يحمل كتاب بين يديه كبير الصفحات، قديم الشكل، لا يظهر ما فيه!

–السلام عليكم، سأسرق من وقتك دقيقة

–وعليكم السلام، نعم ماذا تريد؟

–يا شيخنا رأيت الرجل الذي دخل للتو...؟

–نعم

–ألم تلاحظ شيئا؟

وهو يغلق الكتاب:

–مثل ماذا؟

–الرجل لم يلقي التحية وكان حزين الوجه ويحمل شيئا ولم ينظر إلينا حتى، كأنه يعيش وحيدا يا شيخي!

–إنه يأتي مرات عديدة... وكأنه يفتقد شيئا

سليم يرد عليه متعجبا:

–مرات عديدة..! ما أشد حرصه! لا أعتقد ذلك لو كان يفتقد شيء

لكان قد شعر بنا، هل نحن نظهر غرباء يا شيخي للمارة...؟ لا طبعا

–الى ما تشير؟ هذا ما أحسنت الظن به

–الى الكيس الذي كان يحمله، خاصة أنه لم يلتفت الى الوراء، لقد كان يمشي ثابتا دون طأطأة رأس ولا القاء بال، وفي وقت كهذا..!

–الله أعلى وأعلم ما يحمل يا صاح، أنا متعود على مثل هؤلاء الناس ولا أعير الأمر كثيرا من الانتباه لأن كل انسان وهمه وما يبتغيه يبرر له المقصد:

–يا شيخنا... أنا لا أسيء الظن ولكن الظن والفضول أمران واردان في مثل هذه المواقف

–وهو متدارك الوضع، نعم أنت محق، الوقت متأخر أصلا ونحن في أواخر العصر

–لقد أوشكت الشمس على المغادرة اعذرني ولكن علي معرفة من يكون هذا الرجل

–حسنا دعنا نذهب مع بعض...

وضع الحارس كتابه داخل غرفته الخاصة ورافق سليم الذي كانت تثيره الشكوك والحيرة في ماهية الشخص، لقد كانت المقبرة كبيرة حوالي نصف ميل طول وعرض، المساحة شاسعة، وليست مستوية كما قد يتخيل غيرنا، على آخرها كان هناك منحدر عال، وتحت المنحدر واد طويل لا يكاد

يعرف أصله، لاختلال معرفة كل التضاريس، كان وقتها الرجل الغريب قد وصل الى آخر المقبرة ونزل المنحدر، مما جعلهما لا يرونه، فأسرعا حينئذ حتى يجداه، وبينما هما يمران على مقابر الموتى، من هنا وهناك حتى ازدادت الحيرة والقلق في نفس سليم، لقد كان يظن أنه جاء قصد زيارة قريب. لكن الأمر ظهر العكس، فالرجل مر على المقبرة ذاهبا الى مكان آخر! وهاهما يصلان بعد مرور دقائق آخر المقبرة وأعلاها، فينظران الى أسفل المنحدر حيث يمتد الوادي الطويل، نظرة قوية فلم يجدا شيء، وكأن الرجل تبخر.. فنظر أحدهما الى الآخر وقالا في نفس الوقت:

–أين ذهب...؟

–الحارس متعجبا، سبحان الله... كان يغادر في الماضي من حيث أتى

–وهو يفتش المنطقة بعينيه، لا أعتقد أنه يسرع بهذا الشكل قد يكون في مكان ما هنا... فهو يبدو كبير في السن ألم ترى مشيه...؟!

–نعم صحيح ويظهر عليه الهدوء

يسأله من جديد:

–ماذا نفعل يا شيخي... ألا يزيد الحال غموضا وفضولا؟

–أجل لا ندري!

–هل نكمل السير وننزل علنا نجده؟

–حسنا كما تشاء

نزلا وكان الظلام قد أوشك على الانتشار.. الهدوء ساد المنطقة، لا صوت، لا إشارة توحي على وجود أحد، كان الوادي يابس وقاحل، لا ماء ولا نبات، سوى أشجار متقاربة من بعضها البعض، ومنحدرات مختلفة مما يعيق المشي فيه، كانا وقتها يبحثان عنه وينظران في أقرب الأماكن هنا وهناك، لكن دون جدوى، فتذكر سليم ابنه فقال للشيخ:

–لا أظن أننا سنجده وكأنه شبح، هيا نرجع... تأخر الوقت

–حسنا كما تشاء

–يسأله، ألم تنتبه في السابق أين كان يذهب... وهو يأتي المقبرة؟

يفكر وينظر الى الأرض ويده على فكه:

–قد نسيت لكن من المؤكد أن هناك قبر كان يقصده

–لا بأس سيتضح الأمر ونعرف ما إن كان هناك رابط قوي يربطه بأحدهم أم بشيء آخر..!.

وهاهما يصعدان المنحدر بصعوبة.. بعد ان كان النزول سهل، وفجأة يسمع سليم صوت أغصان شجر يابسة، كانت على الأرض تنكسر، فيلتفت بلمحة بصر وينظر مباشرة، فيجد شخص على وجهه عجار أسود، رقيق، عينيه تظهران وشكله بعيد، كان يبدو نحيفا، شاب لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، لباسه أحمر داكن يرتدي حذاء شتوي يصل الى فوق الكعبين، يديه مسدولتان، واقف كالعمود ولا يتحرك، فينظر

اليهما عن بعد مسافة، وهما كذلك، لكن ما زاد الحال غرابة أنه لم يعر لهما انتباه، سوى أن نظر اليهما نظرة ثاقبة وأكمل يمشي في وسط الوادي، الى أن اختفى داخل الأشجار وفي العتمة، فتكلم الحارس:

–من هذا أيضا...؟

–غريب حقا، لما يلبس عجار! (قطعة قماش تسدل على الوجه) ظننته امرأة ألا يظهر كذلك؟

–يبدو كذلك لولا شكله

–هناك أمر يحدث هنا والرجل الغريب ذاك قد يعرف الشاب العجري هذا، لكن لا ندري! قد يكون لهما موعد

–صحيح هذا ليس صدفة، ماذا نفعل؟

سليم يرد عليه:

–ليس لدينا ما نفعله لنعد، لقد تركت ابني وحده في السيارة

–حسنا غدا إن شاء الله سأبحث في الأمر...

وحينئذ أكملا يسيران.. الى أن وصلا باب المقبرة، فودع الحارس وقال له:

–قد آتي في المساء غدا اعتني بنفسك يا شيخنا، راقب المكان، لا تغفل

–إن شاء الله.

ولحظة فتح سليم باب السيارة وجد ابنه قد اختفى.. ولم يبقى منه سوى رائحته الفواحة تفوح في الداخل، فصدم واحتار كثيرا، وها هو ينادي

بصوت هزيل مرهق، مجيد.. مجيد.. أين أنت..؟ لقد أتيت بني، ثم صرخ بصوت مرتفع مجيد... فسمعه الحارس، فجاء مسرعا اليه ونبضات قلبه تزداد.. خائف لا يدرك ما جرى! حتى وجده جالسا على الرصيف ويديه على وجهه وباب السيارة مفتوح:

– يا إلهي أين ابنك...؟

فمسك الشيخ أنفاسه وقال له:

–لا تقلق واستعن بالله سنجده

– يردد بوجه حزين، لاحول ولا قوة إلا بالله، لاحول ولا قوة إلا بالله..

– انتظر سأتصل بالشرطة..

تفتيش دقيق

وها هو يرجع مسرعا الى غرفة الحراسة، فمسك سماعة الهاتف واتصل بالشرطة وأعلمهم بالذي حصل، مع إعطاء لهم إحداثيات المكان، ثم أرجع السماعة الى مكانها، كان المخفر لا يبعد كثيرا عن المقبرة، حوالي ربع ساعة بالسيارة. سليم كان وقتها قد قام وتعزم ذاهبا يبحث عنه في الظلام الذي باشر حالته الأولى، بالصوت فقط، لأنه لم يكن يحمل لا كاشف ولا سلاح يدافع به عن نفسه، كان همه الوحيد إيجاد ابنه فقط، ولقد تشتت أفكاره فجأة، ولم يكن يتوقع أن مثل هذا الأمر سيحدث له، فشعر بالندم حينئذ، وظل يفتش نواحي المقبرة.. حتى تفطن ورجع يفكر في الوادي الذي وجد فيه ذلك الشاب الملثم بالعجار، والرجل الغريب الذي اختفى بين المنحدرات، فقرر الرجوع اليه.. لكن الحارس منعه وأمسكه قائلا:

- انتظر ليس لدينا شيء يساعدنا على البحث ستأتي الشرطة ونقوى، هي في الطريق..
- لا أتمالك نفسي، كل لحظة تمر أخسر فيها جزء منها، لقد غفلت حقا كان علي ألا أتركه وحده
- لا عليك، قدر الله وما شاء فعل، إنها امتحانات

– الله المستعان

وبعدما بحثا ضواحي المقبرة لم يبتعدا عنها بسبب الظلام وقلة الحيلة، وفي ذلك الوقت كانت صلاة المغرب قد دخل وقتها فقال له:

– اصبر وتعال نستغل الوقت نصلي، إن شاء الله نجده

– إن شاء الله

عندئذ أكملا الصلاة، وما هي إلا دقائق مرت.. تأتي سيارة مسرعة وتتوقف بجانب المقبرة، كانت محملة بأربعة من الشرطة مسلحين، على عجلة من أمرهم، الضابط كان في المقدمة يحمل هاتف صلب أسود عليه مكبر صوت، يليه المحقق يحمل سجل صغير مثل المذكرة يدون فيه النقاط المهمة، أما البقية فكانا يحملان مسدس وعصا بلاستيكية متينة، وها هي سيارة أخرى بها أربعة من الشرطة أيضا تصل وتتوقف خلف الأولى، في حين أسرع الضابط يدخل المقبرة وجاء بعده المحقق والبقية:

– مرحبا

– مرحبا حضرة الضابط

– سليم بصوت ضعيف، مرحبا

يباشر في سؤاله:

– أنت أبوه؟

– نعم أيها الضابط

– لا تقلق، منذ متى اختفى ابنك؟

– منذ ساعة ونصف

المحقق يدخل في الحوار ويبدأ يدون في سجله:

– مرحبا بكما، كيف تركته؟

– لقد جئنا مع وقت العصر من البيت قصد زيارة قريب، وعندما أكملنا كنا بصدد الرجوع الى البيت.. فشغلني أمر أحد الزائرين قدم الى هنا فوددت أن أعرف من هو؟ لأنه أثار انتباهي وفضولي، إنني لا أعرف عنه شيئا وها هو الحارس رأى ذلك بأم عينه، لقد كان رجل كبير في السن في نحو الواحد والستين مثيرا للاهتمام، وبعد أن مرا علينا تركت ابني في السيارة ورجعت أتبعه لكن لم أفلح، لقد اختفى عن أنظارنا هناك. كان قد أشار سليم وقتها الى نهاية المقبرة حيث الوادي الطويل

– وهو يكتب، كيف كانت تصرفاته...؟

– في الحقيقة كان ثابتا يمشي ببطئ، يحمل شيئا معه لا أدري ما هو! كان ينظر الى أسفل الأرض وعصاه على كتفه يحمل بها كيسا أسودا

– ألم يترك أثرا...؟

يرد نادما على سؤاله:

– لا شيء أيها المحقق، لم يلتفت ولم يحدث صوت، ولا حتى أعارنا اهتمام، لقد كان يمشي صوب الهدف فقط..

وها هو ذا الضابط يلقي كلمات سريعة على الأعوان حتى ينتشروا في المقبرة وعلى جوانبها، كانوا ستة، انتشروا خمسة يبحثون.. وبقي واحد معه، يرافقهم المحقق.. وإذا بسليم يضيف:

– يا حضرة المحقق عندما نزلنا الوادي اختفى الرجل، ثم صعدنا ظهر شاب آخر! كان على وجهه عجار لا يظهر سوى عينيه، نحيف ولا يحمل شيء، كان قد شاهدنا أيضا لكن سرعان ما اختفى وغاب..

– أخذ نفس الطريق الذي غادر منه الرجل المجهول...؟

– نعم أعتقد هذا لأنهما ظهرا في وقت متقارب

يعطي فرضية:

– ربما يكونا متواعدان في شيء ما!

– نعم سيادة الضابط

وهو يغلق أوراقه:

– عندما نظرا إليكما هل قرأتما شيئا في عينيه...؟

– لا شيء لقد مشى على خطى الرجل الغريب دون أن يترك أثرا أو تصرفا يثير شكا أيها المحقق

– حسنا الظاهر أنهما محترفان علينا توخي الحذر عند البحث..

في الوقت الذي كانوا يحققون مع سليم، تهيأ الضابط والمحقق وآخر الأعوان في البحث، حيث أشعلوا أضواء كواشفهم، وذهبوا ينزلون المنحدر.. كان الحارس قد أمره بالبقاء أمام الباب والأعوان كانوا في نواحي ووسط المقبرة، وبعدما نزلوا في الوادي الطويل ابتهج واستنار وأصبح يرى ما فيه من أشجار وحصى ومنحدرات، سليم كان قد لا يزال القلق يحوم ويصارع في داخله ويتساءل أين ذهب...؟ وهل الشاب الملثم بالعجار والرجل الغريب لهما فعل فيما حدث؟ الضابط كان يمشي ويلقي بالضوء أمامه حتى يرى الطريق وهو يمسك مسدسه في يده الأخرى، المحقق كذلك، أما آخر الأعوان فقد كان بجانبه، يمشي معه ويحرصه، فقد أصر على النزول معهم والبحث عن ابنه الذي ترك له وجعا وحيرة لا توصف، وعلى الرغم من طول الوادي واتساعه، ظلوا يبحثون في مختلف نواحيه.. مبتعدين عن المقبرة مسافة مئتي متر، كان لا أحد يتكلم مع أحد، الليل ينزل أكثر وأكثر مع مرور الوقت، الهدوء يسود المنطقة، ولكن مع التقدم والبحث المستمر لمدة ربع ساعة تأتي إشارة من أحد الأعوان الذين تركوهم في أعلى المنحدر:

- سيادة الضابط هناك مشتبه يمشي على الطريق الثانوي يمين المقبرة هو قادم باتجاهكما..
- وهو يتوقف، راقبه واتركه ينزل لا تحدث حركة

– أمرك

وها هو يتكلم مع البقية:

– لا أحد يتحرك مكانه، انبطحوا، كونوا يقظين

– الكل يجيب، علم

بعد خمس دقائق كان قد اقترب ودخل الوادي ذاهبا باتجاههم وماهي إلا لحظات.. خرج الضابط مباشرة فأخافه ومسكه، ثم أسقطه على الأرض ووضع ركبته على رقبته، كانت بنيته قوية، كان نشيطا سريعا في العمل حتى أنه بعد أن أسقطه أمر عون الشرطة أن يضع القيود على يديه من الخلف، ففعل ذلك، الشاب الذي تم الإمساك به كان في نحو العشرين، جميل الهيئة، نظيف اللباس، على رأسه قبعة، ووجه أسمر، يظهر عليه أثر التعب. كان قد صرخ عندما قام الشرطي بوضع القيود على يديه:

– أتركوني.. لم أفعل شيء؟

– رد عليه، أين أنت ذاهب في هذا الوقت المتأخر؟

– وهو خائف محاولا الكذب، أنا صياد سيادتكم وجئت حتى أتفقد الكماشة

– تتفقدها في الليل!

كان المحقق صامت لكن سرعان ما تكلم مع المشتبه:

– لا يبدو عليك صياد، فتشه قد يحمل شيء

فعل عون الشرطة ذلك لكن لم يجد شيء سوى مبلغ من المال وولاعة وسجائر وسكين ماض صغير، يغلق ويخبأ في الجيب:

– لما تحمل هذا؟

– أحتاجه في العمل

– هذا مخالف للقانون، وماذا تعمل؟

– أعمل جزار

المحقق يسأل من جديد:

– هل أنت في وقت عمل حتى تحمله معك الآن؟

– يدخل الضابط في الحوار، هيا معي أرني ما إن كنت صادق، أين هي كماشتك هذه...؟

واصل الجميع السير باتجاه نهاية الوادي.. ثم اعترف الشاب فجأة:

– لقد كذبت اعذروني كنت خائف ولم أجد ما أقول!

– لسنا في وقت مناسب حتى تكذب علينا. نحن نبحث عن الطفل المختطف وأنت الآن مشتبه به ما دمت لم تفصح عما جئت إليه

– يفاجأ، أنا بريء صدقني سيادة الضابط، مستحيل أفعل هذا، أرجوكم صدقوني

كان الشاب يتحدث بصدق وقتها والخوف يزداد في داخله فأحس المحقق بذلك أيضا فقال له:

– هيا ازرع ما عندك ليس لدينا وقت، سنساعدك إن كنت ما تقوله صحيح

– ظل ساكت قليلا الشاب ثم قال للجميع، لقد جئت ألتقي بائع

– من يكون هذا البائع الذي جئت اليه في وقت متأخر؟

– مروج يبيع مواد مؤثرة

يسأله يدقق في الأمر:

– مواد مثل ماذا؟

– ترامادول، بريجابالين

– مؤثرات عقلية! جئت تشتري؟

– نعم أنا مدمن أعتذر

الضابط متعجبا:

– من يكون هذا المروج صفه لنا!

– إنه شاب ليس بالطويل ولا بالقصير، نحيف ويلبس لباس أحمر وعلى وجهه عجار أسود، لا أعرفه جيدا بيننا معاملة فقط أشتريها وأغادر صدقوني

يدخل سليم في الحوار بعد أن كان منصتا ولا يفكر في شيء سوى في ابنه الذي اختفي منذ ساعتين:

– أيها المحقق إنه نفس الشخص الذي رأيته أنا والحارس هنا في الوادي

– مخاطبا الزبون، حسنا إذا أردت أن تخرج الى الحياة اوصلنا اليه، أما يزال بعيدا؟

– لم يبقى الكثير

– هيا أيها المحقق لنستغل الوقت. إياك أن تظهر له شيء سنحاسبك عنه

يمشي الجميع دفعة واحدة وبعد فوات دقائق يصلان الى آخره، كان في نهايته بيت موجود على يمين الوادي تحت شجرة كبيرة، بها أغصان خشينة، وأوراق كبيرة الشكل، مغطي لا يرى الا بصعوبة، المكان كان هادئ والظلام يعم المنطقة، قبل أن يصل الجميع الى البيت القصديري حيث المروج أطفأ الضابط ضوء الكاشف وقال:

– سنبقى هنا، اذهب أنت.. وإياك أن تفضحنا

سمع الكلام ثم أكمل ذاهبا اليه وعندما وصل ها هو ينادي بصوت مفهوم:

– ديغا.. ديغا..

كان هذا اسم مروج المؤثرات العقلية المستعار، شابا حذر جدا لا يبيع معه أحد كان يفعل كل شيء وحده ولا اتخذ صديقا يوما، كل هذا كان يفعله حتى لا يعرف وتكشفه الشرطة فتلقي القبض عليه، الزبون في ذلك الوقت كرر يناديه ولكن دون جدوى، فأكمل حتى وقف عند البيت وبدأ يدق دقات عدة.. فلم يفتح أحد، فأدرك البقية أنه لا أحد، فجاؤوا

مسرعين على أمل لقاء شيء، لكن لحظة وصولهم دفع الضابط الباب بقوة، ثم دخل الجميع فوجدوا المكان فارغ ليس فيه أحد، متسخ وفوضى، فيه سرير قديم وبجانبه طاولة، فوقها ملعقة صغيرة وزجاجة كحول، على حاشية البيت كان هناك أغطية وأفرشة قديمة لا تستعمل لشيء، كان وقتها المحقق قد بدأ بتفتيش المكان.. بينما هو خرج يعاين الساحة جيدا وراء البيت وحواليه، سليم كان في الداخل، أما الزبون أجلسه عون الشرطة على السرير يترصده وها هو يقف أمامه حتى وإن حاول الهرب لا يستطيع، منظر البيت كان بشعا ومخيف، يشبه مكان أوساخ، كريه الرائحة لا جمال فيه، المحقق ظل يفتش في كل زوايا البيت فلم يجد شيء، ثم جاء الى السرير ورفع الفراش بعد أن قام الزبون منه، فوجد كبسولة دواء مغلفة من نوع ليريكا، ولفائف أوراق وأداة حادة صغيرة، فنظر الى الزبون وقال له:

– هل تتعاطى هذا الدواء؟

– يصارحه، هذا في السابق أما الآن أنا أتعاطى نوع آخر

يسأله متعجبا منه:

– قل ما هو؟

– شوشنة

– مدمن شوشنة! تتعاطى أخطر المواد أنت. يحضرها وحده؟

– أجل صحيح يفعلها هنا ثم يبيعها حسب الجرعة

يكمل تفتيش البيت ثم يدخل الضابط:

– هل وجدت شيء؟

– الظاهر أن المروج كان يعلم أننا سنأتي هنا فلم يبقي شيء، لكن وجدت هذا تحت السرير –مشيرا الى حبة الدواء والشفرة الحادة ولفائف الأوراق–

– ينظر الى الطاولة فيحمل الملعقة الصغيرة، يبدو أنه يحضر شيء!

– نعم يحضر شوشنة وهذا من مستهلكيها –مشيرا الى الزبون–

الضابط يسأل:

– هكذا إذن، من أين يأتي بها؟ وكيف يحضرها لكم؟

– وهو مستغرب، لا أدري هو متحفظ على الأغلب، مرة أدخلني ورأيت أنه استعمل مواد عدة ووزنها، كان يمزجها مع الهيروين والباراسيتامول، يبدو أنه يعدل به تركيز المفعول والحرارة ثم يضيف الكحول في الأخير

وهم في البيت القصديري تأتي إشارة من أحد الأعوان:

– سيادة الضابط تسمعني.. وجدنا كيس معبأ ومربوط بشدة أمام أحد المقابر

– لا تلمسوه سنأتي.. أيها المحقق أكملت؟ الزملاء وجدوا شيئا

– نعم أجمع الأغراض فقط..

وبعدها رجعوا على طريق الوادي حيث الأعوان، بسرعة وفي وقت وجيز.. وحينما وصلوا أعلى المنحدر آخر المقبرة التقى الضابط بعون الشرطة الذي أعلمه بذلك:

– أين هو..؟

– مشيرا بيده، هناك بالقرب من السياج

كان الكيس لا يظهر في الليل لولا ضوء الكاشف وحنكة وفطنة الشرطة، كان موضوع على جانب القبر وعلى يمين المقبرة، قريب من الشباك المحيط بها، حيث الطريق الثانوي المؤدي الى نهايتها، كان هناك ثلاث أعوان قريبون من بعضهم البعض، أما البقية فقد كانوا في الجهة الأخرى من المقبرة، كان الضابط مع المحقق يمشيان محاذاة بعضهما البعض، وسليم كان مع الزبون وعون الشرطة، الذي كان يمسكه من كتفه ويسير معه.. وعندئذ وصلوا إليه فاقترب يضع قفازات سوداء خشينة خاصة بالعمل، فأخرجه من بين الشوك والعشب وبدأ بفتحه وبهدوء يسود المكان، الضابط وقتها ساعده وألقى الضوء على الكيس حتى يظهر ما فيه، بينما البقية اكتفت بالنظر متعجبة من الكيس ومما يوجد فيه! وبعد هنيهة فتحه فعثر على حجاب صغير ملفوف على شكل كتيب صغير، دمية صغيرة مضغوطة، قطعة قماش مربوطة على شكل عقد مبللة بدم أحمر، كان المنظر بشع

أخاف الناظرين وأفزعهم، لكن سرعان ما تركه مفتوح ووضعه على الأرض لأنه لم يتوقع أنه سيجد حجابا وسحرا بهذا الشكل، سليم عندما فتح المحقق الكيس اقترب منه أكثر ونظر فيه جيدا، الأعوان تفاجؤوا حول الأمر وظلوا ينظرون فيه الى أن تكلم الضابط متعجبا:

– طلاسم وتعويذات!

– نعم أشكال مقرفة ومقززة حقا

– الظاهر أننا نحتاج عالم لفك هذه الطلاسم

سليم وهو ينظر من جديد:

– يمكنني المساعدة أنا أملك العلم في حل هذه العقد وهذا الحجاب

– كيف ذلك؟

– أستطيع فك هذا السحر، أحتاج منكم ماء فقط

عندئذ أمر أحد الأعوان الحاضرين بالذهاب وجلب قارورة ماء على السريع من السيارة ثم قال له:

– كن حذر

– وهو يجلس على ركبتيه وبصدد حمل ما في الكيس، بسم الله الرحمان الرحيم

فبدأ يقرأ سورة الفاتحة، الإخلاص والمعوذتين كررهم ثلاث مرات، وزاد على هذا لتحصين أقوى آية الكرسي، آخر آيتين من سورة البقرة، وآيات

السحر.. ومع التكرار كان ينفث في العقد ويفتح.. ثم يمزق لاصق الحجاب والدمية وقد استعمل شفرة حادة، كان قد أعطاها له المحقق، التكرار كان يفعله من باب الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وحتى يحصل على بركة الرقية والنفث في العقد والطلاسم، وبعد أن اجتهد وظل حوالي عشرة دقائق يفتح السحر وجد صورة شخص وكلمات غريبة غير مفهومة، كان كل ما يعرف في السحر الاسم والشكل، الأمر كان معقدا لكثرة الشر في تلك التعويذات والكتابات. وبعد ذلك قام واستقبل القبلة وبدأ يرقي في الماء وينفث فيه.. وعندما أكمل الرقية بدأ يرش كل ما فتحه في حين كلمه الضابط:

– أكملت؟

– أجل سيادة الضابط أنا أقوم الآن بإتلاف مفعول السحر بحول الله

– سنأخذ صورة الشخص

حينئذ أمر جميع الأعوان بالتجمع والرجوع الى مخفر الشرطة، لكن بعد أن أكمل سليم عمله قال:

– أيها المحقق لدي معلومة قد تفيد

– نعم تفضل

– الرجل الذي اختفى في الوادي الذي كنا فيه

– الذي أثار انتباهك!

– نعم لقد قلت لكم أنه كان يحمل شيئا معه

الضابط وهو يمشي مع الجميع يغادرون المقبرة:

– ربما أمر وارد لكن نحتاج دليل، ما يهمنا الآن التركيز والعمل في إيجاد ابنك

– المحقق يغلق الموضوع، حسنا عليك أن تأتي معنا الى المخفر وتساعدنا في كشف ورسم هؤلاء الذين وجدتهما هنا في المقبرة، علنا نجدهما

مساعدة على السريع

تهيأ الجميع في ذلك الوقت الذي اقتربت فيه صلاة العشاء، سليم كان قد لا يزال يفكر في ابنه ويتساءل في قرارة نفسه عن كيفية اختفائه ومكان استقراره، الوساوس حركت عقله وأضعفت قلبه لولا وازعه الديني، إلا أنه بقي صابرا متوكلا على الله ولم يسخط، حتى أنه كان مع مرور الوقت يقول – لا حول ولا قوة إلا بالله – ساعيا وآخذا بأسباب النجاة والوصول الى حل مريح، الكل قد وقفوا معه ولاطفوه وهم خارجون من المقبرة، لم يكن يذهب مع الشرطة لولا الأخذ بالأسباب ومساعدتهم على كشف الفاعل، لأنه كان يشم رائحة ابنه في ذلك المكان ومازالت آخر المواقف التي عاشها معه راسخة في ذهنه، خاصة عندما قال له –ربي يرحمنا– إنها كلمات قد تكون في الظاهر عادية لكن بالنسبة لأبوه كان عميقة جدا، لا تكاد تخرج من ذهنه هذا لأنه كان يحبه بصدق وهو أول مولود له، وأعمقه في قلبه، فالحب الأول حب استثنائي لا يجرب مرتين، بل يعاش مرة وإن عاش لا يعاش كما عاش في الأول، إنه مميز ولا يقذفه الله إلا لحكمة بالغة، على أي حال فقد ركب أعوان الشرطة السيارة الخاصة وكذلك الضابط والمحقق، سليم كان قد ودع وقتها الحارس وركب سيارته ولحقهم الى المخفر، وبعد فوات ربع ساعة وصلوا الى هناك ودخل كل واحد يأخذ مكانه، لكن المحقق بقي معه وقال له انتظرني هناك –مشيرا

الى غرفة التحقيق– ثم ذهب يعطي البصمات والأغراض للشرطة العلمية المختصة بالأمر، بعدها رجع إليه وناوله القلم وثلاث أوراق بيضاء حتى يرسمهما له، ويرسم صورة ابنه المفقود، فأمسك ذلك وقال:

– سأحتاج وقت أكثر من المعتاد–نصف ساعة تقريبا–إنني مشتت أعذرني

– لا بأس أرسم صورة ابنك أولا هذه التي تهمنا لمواصلة البحث، أما الصورتين فلسنا على عجلة من أمرنا الآن وكل ما أسرعت فهذا يفيدنا

– نعم إن شاء الله

يحفزه بكلمات تبعث الحياة:

– اطمئن سنفعل ما بوسعنا حتى نجده

– شكرا جزيلا أيها المحقق

– أتركك أرسم براحتك، سأرجع..

وإذا به يذهب يكمل التحقيق على أمل إيجاد معلومات أخرى توصله الى وكر أو مكان اختطاف مجيد. الضابط عندما دخل أمر أعوان آخرين بالاستعداد والذهاب الى قلب أمستردام وضواحيها، من أجل مواصلة البحث والتنصت فيما قد يكتشفوا شيئا أو أثرا قد يساعدهم في إيجاده، فراحوا يفعلون ذلك وتحركوا كدورية خاصة في معظم الشوارع والأزقة

المشتبه فيها، كان ذلك بعد أن أكمل الوالد رسم صورة ابنه بكل اتقان وحب. وعندما أكمل بقية الصور بالوقت المطلوب قدمها للمحقق، فاندهش من رؤية منظرهما الذي كان يوحي بالشر:

- يبدو عليهما المكر والخديعة لكن دون دليل قاطع يبقى الحكم معلق
- نعم معك حق
- على كل حال نشكرك الآن انتهت مهمتك إذا احتجناك سنتواصل معك في أقرب الآجال، أعطنا عنوانك ورقمك سنتصل بك ونعطي لك مختلف المستجدات والمعلومات..

عندئذ أعطى له ما طلب، ثم خرج من مخفر الشرطة وهو خافض رأسه ينظر في الأرض، يمشي وكأنه لا يدري الى أين يذهب، وقد علم الآن أن زوجته لم تعلم بعد ولا حتى أهله، فظل يحاور نفسه ويحاول ترتيب أفكاره ويجد ما قد يقنعها، لكن دون جدوى لأنه علم أنها حامل وليس هناك ما سيقنعها إلا جسده، فهي كانت تحبه حبا عميقا لا تكاد تتركه لأحد لولا أباه الذي هو جزء من صلبه، وخاصة أنها عاطفية وتتأثر بسهولة، إنها مؤمنة وملتزمة لكن الصدمة قليل من يمسك عندها نفسه، وخبر اختطاف كهذا قد يؤدي بها الى الدخول الى المشفى! لكن في الأخير قرر الذهاب الى أهله والإفصاح لهم عما حدث، وقد رجح أنهم الأولى في النصح والاهتمام، أما الحزن لم يتمناه لأحد مذ علم أنه يدمر البدن، ومنذ ذلك الحين كان قد ركب السيارة وغادر متجها عائدا الى روتردام، المدينة التي ترعرع فيها وجاء منها خلال سفره الى أمستردام، والتي لم يعد إليها منذ مدة، كان لحظتها قلق على ابنه الذي لم يدرك بعد ما حصل له. وخلال مغادرته جهاز الشرطة كان يقود وهو يفكر في زوجته التي أحس أنها قد قلقت لتأخر الوقت.. ورغم ذلك أخذ قراره بشكل جدي متقبلا الوضع، غير أن الظاهر لسليم أنه أصبح لا يتحمل الصدمات خاصة عندما أثرت عليه فاجعة موت صديقه خليل، لم يكن يتوقع أن تلك الصدمة ستؤثر

على وجدانه، لكن في الأخير اجتازها بصبر وحكمة وعزيمة. على كل حال من الأحوال دخل الطريق العام الذي كان فيه القليل من السيارات بمختلف الأشكال، كانت الأضواء مشتعلة، والجو لحظتها كان بارد قليلا، الليل في ثلثه الأول، كان مظهر المدينة راقيا وأنت على السيارة ترى الأشجار بعلوها وطولها، نظافتها وجمالها. وعندما أوشك الدخول الى مدينة روتردام وهو يسير بسرعة متوسطة، وإذا بسيارة سوداء تسير بسرعة فائقة تأتي نحوه مباشرة تحاول ضرب سيارته البسيطة، لكن نجا بفضل من الله، كان صاحب السيارة السوداء يبدو ثملا وقد فقد وعيه وهو يقود سيارته، وهذا ما جعله يندفع بسيارته ويوشك فعل حادث، الشاهد أنه كان خارج من مدينة روتردام متجها الى إحدى المدن! وفي تلك الأحوال لم يكن على سليم إلا أن أكمل سيره قائلا في نفسه – الله المستعان – وبعد مرور ساعة وصل الى بيت أهله سالما، فركن سيارته جانبا وأغلقها.. ثم تعزم ومسك نفسه ووجهه الذي كانت تظهر عليه آثار التعب، وبدأ يطرق الباب بصوت خافت، وها هي أمه تنزل وتفتح له:

– السلام عليكم أمي

– وعليكم السلام ابني

– كيف حالكم؟

– نحن بخير الحمد لله

الأم تنظر فيه وتسأله:

– وأنتم كيف حالكم؟

– الحمد لله، سأصلي أمي وأعود، أين أبي؟

– في العمل لم يأتي بعد

وها هو ذا يذهب الى الحمام ويتوضأ كي يصلي صلاة العشاء، كانت الأم في ذلك الوقت قد أكملت عشاءها، وهي بصدد غسل الصحون ومسح الأرض، الأب كان قد ذهب للعمل كعادته مساء، ولا يخرج حتى منتصف الليل، وليد ابنهم الأخ الأكبر كان لا يأتي إلا من حين لآخر لزيارة أهله، ثم الرجوع الى الخدمة في الثكنة العسكرية بمدينة ماستريخت، سليم وقتها كان قد أكمل وضوؤه وصلاته ورجع الى أمه عازما أن يعترف لها عما جرى لابنه، فلذة كبده، وعندما دخل المطبخ وجدها تغسل الصحون فشعرت به:

– هل أكلت...؟

– وهو يجلس بجانب المائدة، لا لكني لست جائعا يا أمي

تسأل مستغربة:

– خير يا رجل أنت لا تأتي في هذا الوقت إلا لحاجة

– معك حق إنني أدرك أنك تشعرين وتتقبلين أكثر مني، على كل حال أنا أتيت لأنه وقع شيء لم يكن في الحسبان

– خير إن شاء الله

كانت الأم قد أكملت الصحون وجلست على الكرسي أمام مائدة الأكل حتى تفهم ما وقع:

– لقد اختفى ابني مجيد ونحن في المقبرة، ذهبنا حتى نزور خاله..

– يا إلهي كيف حدث هذا؟!

– لقد غفلت غفلة قد لا أنساها طوال حياتي..!. عندما أكملنا الزيارة أثار انتباهي رجل غامض دخل المقبرة، فتركته وحده في السيارة ورحت أتبع الرجل بنية أن أعرف ماهيته، لكن لم أفوز بشيء!

بإيمان ويقين يشع من قلبها:

– قدر الله سليم، إن شاء الله يأتي فلا تقلق، هل أبلغت الشرطة؟

– نعم لهم علم بذلك وهما يعملان بجد جزاهم الله خيرا

– وهيلينا لها علم بذلك؟

يرد محتارا في نفسه:

– لا يا أمي ليس لدي القدرة على الاعتراف لها

– لكن يجب أن تعلم وتصبر لمشيئة الله

– نعم لكن ليس الآن أنا مشتت

– حسنا على الأقل اتصل بها وطمئنها

عندئذ نهض من الكرسي وراح يأخذ الهاتف ويتصل بزوجته التي كانت قد تفكر في سبب تأخرهما، كانت الجدة قد علمت بذلك أيضا وهي معها على مائدة الإفطار، وقتها لم يجدوا حيلة إلا أن صبرا وانتظرا خبرا، وقد جاءهما الخبر حين اتصل الآن.. حاملة هيلينا السماعة وبأذن صاغية تنصت:

- السلام عليكم، أنا سليم
- وعليكم السلام، مرحبا
- كيف حالك؟
- بخير الحمد لله وأنتما

يجيبها معتذرا:

- الحمد لله، أعتذر للآن تفرغت، أنا عند والدي قد أطول الليلة أو ربما سنبقى الى الصباح، اعتني بنفسك
- حسنا كما تشاء وأنتما أيضا

وضع السماعة حينئذ واستلقى على السرير الذي كان جالس عليه، كانت أمه قد تبعته ووقفت أمام باب الغرفة تسمع، واضعة يديها على بعضهما البعض، كانت حائرة وفي نفس الوقت تكتم حزنا في داخلها، حتى لا تشعر ابنها بما فقده، فأرادت أن تتركه لوحده حتى يرتاح:

- ارتاح بني وثق في الله، فوض أمرك وحالك إليه

– إن شاء الله، شكرا جزيلا، عندما يدخل أبي أخبريه فأنت أدرى بحاله أمي

– لا بأس سيتقبل الأمر لا حل غيره

الوالد دخل كما تعود في منتصف الليل، كان ابنه نائم في ذلك الوقت لكن زوجته فلا، فهي سهرت ولم تستطع النوم بسبب ما أفصحه لها، كانت تدعو الله من حين لآخر بأن يرجع حفيدها الى أهله سالما معافى، وحينما وجدها زوجها مستيقظة راح يحقق:

– مرحبا، لما أنت مستيقظة؟

– طار النعاس، لقد جاء سليم

– نعم رأيت سيارته في الخارج، أين هو؟

– نائم

تضيف ما جرى:

– لقد أفزعه شيء

– وهو ينظر إليها، خير ما به؟

– لقد اختفى مجيد وهما في المقبرة ذهبا ليزورا صهره..

متعجبا بعينين متغيرتين:

– سبحان الله، كيف هذا؟

– لقد تركه في السيارة وعندما عاد لم يجده، بسبب حالة شاهدها أثارت انتباهه فجذبته

– لا حول ولا قوة إلا بالله

– لا ينبغي أن نقلق نحن أمامه

الزوج مدعما إياها:

– صحيح، لكن قد يحدث له مكروه

– إن شاء الله يعود سالما لنا

– إن شاء الله، الشرطة لها علم بذلك؟

– نعم لقد أخبرهم وهم يبحثون..

– لا يزال مذهولا، ماذا فعل الطفل حتى يختطف!

سماع الخبر في ذلك الوقت لم يدع الوالدان ينامان، ولا حتى يغمضا عيناهما، فقد ظلا مستيقظين حتى أذن الفجر، وحينما سمعا ذلك قام واحد تلو الآخر كي يصليا، سليم أيضا كان قد سمعه فاستيقظ، ثم رأى أبوه فاحتضنه مباشرة، بصمت مليئا بالفوضى الفكرية، كان أبوه حكيما في ذلك الوقت فلم يشأ يدخل معه في حوار، لأن الوقت حقيقة ليس وقت أخذ ورد، فما كان له سوى أن ألقى له التحية وقال له – قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون – وها هو يطلب منه الذهاب معه الى الصلاة، فسمع كلامه ثم توضأ كل واحد منهما، وخرجا متجهين

الى المسجد.. وهما يسيران صامتين.. لا كلام ولا محاولة كلام، ولا نظر، وبعد أن وصلا المسجد الذي لم يكن بعيدا عن بيتهما، دخلا وجلسا في أول الصف، وصلا ما يجب عليهما أن يصليا، وعندما أكملا ذلك ذكرا الله عدة دقائق.. وخرجا عائدين بحياة جديدة وشكل آخر وتركيز مفعم بالحياة فقال الأب للابن:

– أهلك بخير؟

– نعم بخير الحمد لله

– ماذا تنوي فعله الآن؟

– سأذهب الى المنزل هم لا يعلمون ما حصل

الأب وهو يمشي بخطى ثابتة:

– أنت خائف من النتيجة؟

– لا النتيجة بيد الله فقط أنا لا أملك كلاما مقنعا أبي

– نعم لا يوجد في مثل هذه الحالة: الصدق مؤثر والكذب سينكشف والحيل لا تطول، إذا عليك بالاختيار السليم ولا تفكر في النتيجة الله المستعان

– معك حق سأصارحها وإن شاء الله تكون متفهمة

ينظر في وجهه مجيبا:

– هذه هي الأم عاطفتها تسبق عقلها، نفسيا يبقى الكلام هو من يخفف الوضع

– وهما يصلان باب المنزل، الله يسهل الأمور

دخلا البيت وذهبا يمران في الرواق الى غرفة الضياف، ثم جلسا وكانت أمه في ذلك الحين قد انتهت وحضرت فطور الصباح، وها هي الآن تأتي به وتناول كل واحد كأسه، كانت تسكب وتتكلم:

– سليم كيف أصبحت...؟

– بخير أمي الحمد لله

الأب مخاطبا زوجته:

– سنذهب مع سليم اذهبي حضري نفسك

– حسنا لن أطيل..

عندئذ ذهبت تلبس حجابها وتجمع أغراضها وقد كانت الساعة السادسة صباحا، كان الأب قد تحدث مع ابنه حول اختطاف ابنه وقت الفطور، وعن الأماكن المشتبه فيها التي قد يكون فيها مجيد مختفي، لكن تبقى كل الاحتمالات محل نظر حتى يجدوا دليلا يقودهم الى الخاطف، هذا هو المبدأ الذي يحتاج تحليل وتبيان، حلول مريحة للنفس البشرية، فالإنسان لا يستطيع العيش باطمئنان إذا لم يجد حلولا لأسئلته فقد يجن إذا كثرت الأسئلة وقلت الأجوبة، العقل مجبول على التعلم والمعرفة وإدراك

أساسيات الحياة، لا يمكن أن يبقى على حاله دون أن يتفطر أو يعرف شيئا إنه بحاجة الى كلمات وأفكار وخطط، وعلى الرغم من وجود الشرطة إلا أن القلب لا يثق ويندفع لا إراديا الى محبوبه، حتى يهدأ الوضع وتتحقق السلامة والمعافاة. وعلى أي حال من الأحوال أكملت الأم عملها وخرجت برفقتهما، ثم غادروا مباشرة الى روتردام حيث أهله.. كان الشروق قد حل وقتها، ضوء الشمس بدأ في الظهور، الجو معتدل لا برد ولا حرارة، الطريق كان شبه فارغا لا تجد فيه إلا سيارة أو سيارتين تمر عليهما من حين لآخر، كان يقود السيارة بسرعة ولا يركز في أحد سوى في قيادته، ومرة على مرة كانت تأتيه فكرة، فكرة تخرجه عن نطاقه فتجعله يفكر في ابنه محاولا إيجاد حل، لكن الأمر هذا أتعبه وأرهق عقله لأنه تفكير عقيم لا يجلب حلا، هل الفقد يجعل كل الذين فقدوا ما يقربهم على هذه الحالة؟ إنه لحزن على إنسان صادق يحب كثيرا، لكن لا قدرة لأحد على اجتياز مثل هذه المواقف الصعبة إلا بهذه التساؤلات والإمكانيات الواردة، ويبقى رضى الله والاستسلام لأمره في المقدمة. فبعد مرور مختلف التساؤلات والصراعات الداخلية خلال الرحلة ها هو ذا يصل الى المنزل مع والديه ويوقف السيارة في مكانها المعتاد، فينزلا منها ويجتمعا قبل أن يدخلا بيت الأهل، كانت الجدة في الطابق الأول في غرفتها، أما هيلينا فقد كانت في الطابق الثاني في غرفتها، تكتب كعادتها

في وقت الصباح، كانت تدرك أن البركة تبدأ في هذه الساعات القليلة، وعندما دخل سليم ذهبا والديه يجلسان على الأريكة التي كانت موضوعة في فناء الدار، أما هو فقد صعد الى زوجته عازما على الاعتراف لها مما حدث أمس.. وهو يصعد الدرج كانت قد سمعت صوتا فشعرت بذلك فامتنعت عن الكتابة، وإذا به يدخل الغرفة:

– السلام عليكم، كيف صباحك؟

– وعليكم السلام، الحمد لله وأنت؟

– الحمد لله على كل حال من الأحول

– أين مجيد...؟

كانت قد وقفت في ذلك الحين فأجلسها وكان ليس مبين على وجهه أو ملامحه شيء مما قد يشير الى حزن أو فقد شيء ما! لقد كان كل شيء يغلي في داخله، كتوم صبور مؤمن ومحتسب:

– هل تؤمنين بالسنة...؟

– متعجبة، بالطبع ولكن لما هذا السؤال..!؟

– وهو جالس حيث جالسة على السرير، في الحقيقة أنا أؤمن بحديث عظيم أريدك أن تصدقي به في الحال وهذا طلب صغير مني لك

وهي تنظر اليه:

– أكيد..!

– يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم: أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف

– صلوات الله عليه، خير ماذا حصل سليم!

– لا نسخط هيلينا، لقد اختفى، كنت قد تركته في السيارة وعندما رجعت لم أجده!

وهي متفاجئة ذاهلة:

– يا الله، كيف تركته؟!

ظل سليم صامت هنيهة فبدأت تبكي في صمت والدموع تنزل على خديها، فأمسك سليم زمام نفسه:

– اصبري وثقي في الله سنجده إن شاء الله، الشرطة لها علم وقد حققت في ذلك وتملك معلومات قد تدلنا الى الخاطف

– وهي تضع يديها على خديها، لا أصدق، حسبنا الله ونعم الوكيل

– لا نيأس والله المستعان. والدي هنا، هيا ننزل..

واجهت هيلينا الموقف بصعوبة وبكت حتى اكتفت بالدعاء، ثم نزلا ورحب وهون ورقق كل واحد على الآخر.. الجدة علمت بعد اعتراف

والدته لها بذلك، وقد تقبلت الأمر وحزنت. الصبر هو الحل في كل الأمور فلا داعي للسخط والغضب من أقدار الله وحكمته التي لا يعلمها إلا هو، أحيانا نرى الظاهر مؤلم لكن في الأخير ندرك أن الله لطيف بعباده، رحيم بهم، كل هذا رأيناه في الأنبياء، فإبراهيم عليه السلام لم يذبح ابنه، وموسى كليم الله لم يقتله الملأ، والنبي محمد صلى الله عليه وسلم قبله عنده

رأس الخيط

بعدما اعترف سليم لزوجته رن هاتف المنزل، كان المتصل صديقه علي الذي يعمل معه في المطعم، اتصل به حتى يسأل عنه ويعلم ما إن سيأتي أم لا وهو لا يعلم ما جرى.. فحكى له ما حدث له وأوصاه أن يقول ذلك لمالك المطعم مع تقديم اعتذاره، وأنه سيلتحق بالعمل عندما يسكن الحال ويجد فلذة كبده. كان قد تفاجئ عند سماع الخبر وأصبح وجهه متغيرا والحزن يخيم تحت عينيه لكن في الأخير دعا الله أن يسهل له طريقا يوصله لابنه مجيد وكان قد سانده وأعلمه أنه سيوصي كل من يعرفه لربما يجدوا أثرا أو خيطا يقودهم الى الخاطف. وحينما وضع السماعة خرج هو وأبوه الى الشارع عازمين على البحث، فركبا السيارة وذهبا باتجاه المقبرة، التي جرت فيها الحادثة بالأمس فقط، لكن قبل أن يصلا إليها كانت لديهم خطة في أن يسألا كل من يجداه في الطريق الموصل لها.. وعند كل شارع يمران به، لعلى ذلك يكشف همهم ويريح قلبهم، ومع قطع كل مسافة كان يركن بالسيارة وينزلان على أقدامهما ويفتشا في الأمر، وبعد عدة محاولات فاشلة وحوارات تقتل وقتا، ها هو ذا يجد شخصا هزيل البنية، نحيف البدن، قصير القامة، أشقر الشعر وأبيض البشرة، لديه خانة في عنقه والنظر في عينيه يشيران الى اللون الأزرق، كان يلبس لباس بسيط شبه قديم، المهم هندامه كلاسيكي في نحو الخمسين من عمره، لديه طبع

غلب على نفسه، وهو أنه يضم يديه بتوتر قليل عند المشي أو الكلام، وله سر لا أكاد أنا نفسي أدركه، لكن هناك أشياء تصف سره رغم الحلقة المفقودة. حينئذ توقف سليم وأبوه حتى يسألاه ما إن يعرف شيئا، الشاهد أنه كان قريبا من المقبرة في ذلك الوقت، فبادر الأب أولا في التكلم معه، حين وجده ينظف أحد الأماكن الوسخة التي نراها نحن من حين لآخر في البلاد ونحاول الهروب منها:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
- نهض يقيم ظهره ثم نظر فيه، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته
- سليم وهو يصل أباه، مرحبا بك، كيف حالك؟
- الحمد لله بخير

الأب وهو يدعو له:

- أعانك الله، أنت تعمل عملا نادرا مجزيا عنه إن شاء الله
- إن شاء الله شكرا جزيلا
- هل هذا عملك اليومي؟
- لا أنا متطوع في سبيل الله، أحب أن أنظف، ولقد تعودت على ذلك والحمد لله
- سليم يديه على بعضهما البعض، كان الله في عونك وجزاك الله خيرا، إن الله نظيف يحب النظافة، وأنت قد أحببت ما يحب الله

وإذا بالوالد يلاحظ قمامتين مختلفتين في الشكل، واحدة فيها فضلات وبقايا والأخرى مليئة بالأوراق فقط فسأله مستغربا مشيرا اليهما:

- لماذا على هذا الشكل!؟
- صمت هنيهة ثم رد عليه، هذه قاذورات دون فائدة، وهذا ورق له فائدة حتى وإن رميناه..
- سليم يدرك قوله، نعم معك قد يحتاجه غيرنا

وهو يكمل موضحا:

- أنا أفصل الأكل والأوساخ في كيس، والأوراق التي أجدها ممزوجة في كيس آخر، لأنها تملك لغة وهذه اللغة بمكانتها وقيمتها
- الأب يدرك مؤخرا، صحيح إنها تملك عظمة

الابن يضيف:

- خاصة اللغة العربية إنها لغة القرآن، بارك الله فيك
- وفيك بركة، هذا ما أفعله طوال الوقت وعملي ساعدني على العمل كمتطوع إنساني، ولا أخفي عنكم شيئا أنا أحب اللغة العربية منذ الصغر
- نعم إنها لغة كبيرة الشأن جاء بها القرآن

بقي الحوار يدور حول لغة القرآن حتى أدرك سليم فوات الوقت فأفصح له عن همه وقال:

– هذا أبي جئنا حتى نسألك عن ولد ضاع لنا بالأمس كان في المقبرة هناك –مشيرا الى المكان–

– الرجل حائرا، متى بالأمس؟!

– نعم بعد العصر الى المغرب

يرد متعجبا:

– سبحان الله لقد كنت هنا لكن دقيقة

– الأب مركزا، براحتك وأعذرنا

– البارحة كنت في تلك الجهة لم أكن في المقبرة لكن في نفس المكان رأيت امرأة قصيرة القامة تجر ولدا..

القلق يجتاحه:

– صح ألم تفعل شيء...؟

– الأب بهدوء عقل، من أين ذهبت ألم يفعل الولد شيء...؟

– لا هذا ما جعلني أظن أنه ابنها ذاهب معها، لو سمعت شيئا كنت قد فعلت شيئا، هذا أكيد

وهو مهتم بالأمر:

– لكن أين كانت هذه المرأة؟ ومن أين ذهبت؟ قل لنا ولك الأجر

– حقيقة لا أعلم أين كانت، لقد التفت وأنا أنظف المكان فوجدت امرأة مع ولد ذاهب معها باتجاه المدينة.. حتى إنني لم أكن قريب منهم حتى أعرف أكثر..

بين لهما ما شاهده في مكان الحادثة، وفي الأخير وجدا خيطا الى حد الساعة جعلهما يسرعان الى الشرطة.. والفصل في القضية، ومعرفة حقيقة هذه المرأة، الأب في ذلك الحين شكر الرجل كثيرا، وسليم أيضا، ثم رجعا من الطريق الذي أتيا منه الى جهاز الشرطة والتصريح لهما بكل ما علماه، كانت الساعة وقتها العاشرة صباحا، الشمس قد ارتفعت في السماء، الطريق العام قد ازدحم بالسيارات، المدينة مبتهجة، والناس يذهبون ويأتون من كل حدب وصوب، قاصدون قلب أمستردام، الحياة ضحاكة وسليم حزين يعمل ويتحرك جاهدا حتى يجد ابنه، والأب برفقته يسانده، وها هو ذا يحدثه:

– وكأن المرأة تعرفه.. وإلا لما يصدقها ويذهب معها؟

– لا أدري أبي ربما تعرفه أو لا تعرفه يبقى السر عندها

– وهو يعمل عقله، الأطفال أيضا يصدقون الكذب والحيل بكل أريحية

وهو ينحني يمينا:

– نعم هو لا يزال صغير ٩ سنوات أبي

– أعلم ذلك، عاطفة المرأة ليست كعاطفة الرجل

– أبي لا نعلم صفات هذه المرأة سوى أنها مخادعة

– إن شاء الله خير

ظلا يناقشان بعضهما البعض حتى وصلا بعد ربع ساعة، وها هو يركن السيارة في شارع .....ذ ثم ينزلان ويسرعا الى مخفر الشرطة، كان المحقق قد دخل على الساعة التاسعة صباحا، الضابط لم يكن موجود ذهب مع أعوانه للعمل، عون الاستقبال كان على الباب في ذلك الوقت وقد استقبلهما ورحب بهما عندما عرف حالهما، إذ تساهل معهما وقدمهما الى المحقق، فرحب بهما أيضا وتعرف على والد سليم، في حين أعطى لهما ما جمع من معلومات حول المشتبه الشاب المروج للمؤثرات العقلية، والرجل الغريب الذي لا يملكون دليلا عنه الى الآن. رغم توفر الأغراض التي وجدوها في المقبرة إلا أنهم لم يكتشفوا أثره بعد ومكان اختبائه، غير أنهم وجدوا الأماكن التي كان يتنقل فيها ويبيع فيها سلعته الضارة، حيث قال لهما أن المصادر التابعة لجهاز الأمن وأرشيف المعلومات أثبت أنه كان متورط في قضايا من قبل لكنه ينجح في كل مرة ولا يحول الى السجن لعدم وجود دليل كافي. ومن المعلوم أنهم في المرة الأخيرة عندما ذهبوا الى المقبرة اكتشفوا أنه يبيع أدوية مهلكة للدماغ والنفس، بشهادة الزبون الذي قبضوا عليها بالأمس، مما جعلهم يسارعون في جمع الأدلة ومختلف

المعلومات، مع البحث في كامل المناطق التي كان يتواجد ويبيع فيها، خاصة وهو يبيع مادة الشوشنة التي تعتبر من أخطر المواد المؤثرة على العقل، والغير قانونية ولا محمية، فهو قد يدمر بهذه الآفة جيلا ولربما قطاع توظيف خاص، والغالب على الأمر أن الضابط كان منزعجا كثيرا حينما أدرك أنه شابا من جهة، وأنه يسمم المجتمع من جهة أخرى، الشاهد أن كل هذه الأمور لا يحبها المجتمع، ولا يحب الترويج لها، فهم ينظرون إليها نظرة الأب لابنه، حتى سليم نفسه لا يحب تخدير الناس واللعب على عقولهم واستفزازهم، وها هو ذا يعطي المحقق المعلومة التي سمعها من عند المنظف:

- على أي حال أتمنى القضاء على الفساد، حضرة المحقق لقد ذهبت أنا وأبي ووجدنا متطوعا ينظف بالقرب من المقبرة قال لنا أنه رأى ابني مع امرأة قصيرة القامة لم يتعرف عليها أخذته وراحت به صوب المدينة!
- حقا! هذه معلومة ثمينة تشير الى أن المشتبهين ليسا لهما فعل في الحادثة
- نعم هذا ما يظهر، الرجل الذي تبعته مستبعد تماما، أما المروج فيبقى محل نظر لأنه كان موجود وقتها!

والد سليم يضيف شيئا:

- كل شيء وارد نحن نرى في الآونة الأخيرة الانحلال الأخلاقي وتغلغل الآفات في شتى القطاعات
- وهو يدون، نعم هذا راجع للتربية والرقابة الأسرية، الشرطة تهتم بما هو خارج عن سيطرتهم، على كل حال، الآن نفهم أن المرأة أخذت الابن دون أي مقدمات أخرى فأكيد أنها استعملت معه حيلة جعلته يذهب معها دون أي إصدار صوت أو صراخ وإلا لكان يمكن سماعه والتدخل قبل الحادثة
- معك حق أيها المحقق لكن خدع المنظف وخدعنا نحن أيضا!

الأب بوعي:

- لقد خدعت نفسها قبل أن تخدعنا
- نعم السلطة من ورائها حتى نجدها لا تفكر كثيرا..

القبض على المروج

وبعد مرور أربع ساعات.. كان الضابط مع أعوانه قد داهموا المقر الذي يسكن فيه المروج وأمسكوا به، خارجا منه بلباسه الأحمر كعادته وعجاره الأسود، كان يظهر وقتها أنه في فترة راحة لا عمل، الحاصل أنه لم يكن إلا وحده في ذلك المنزل فعندما دخلوا برخصة تفتيش وقامت الشرطة بالتحري مدة عشرة دقائق لم يجدوا إلا دخان مبعثر وولاعة، ملعقة محترقة من الأسفل، حقنة وخيط بلاستيكي قوي الصلابة، كحول، فصفدوا يديه وجاؤوا به مباشرة الى المخفر، كان الشاب قد امتنع عن الكلام حين قبضته الشرطة، حتى إنه لم يدخل معهم في عراك ولا جدال، هادئ وغير متوتر، وكأنه يدرك ما يفعل! وربما كان يعلم أنه لا يملك شيء يجعله يبقى عندهم كثيرا، لأن كل المؤشرات كانت تشير أنه ليس مروجا بالنسبة للشرطة، بل شابا مدمنا مستهلكا لحد الساعة، وإذا ما وجدوا السلعة المخبأة التي كان يبيعها للمتعاطين فإنهم يحكمون عليه بالسجن، فأحيانا مستهلكي المؤثرات العقلية يتساهلون معهم من باب الإدمان والعلاج النفسي أو برنامج إعادة التأهيل، لكن يبقون تحت الرقابة أو العناية الخاصة، وهذا ليس حكما بل تخفيفا للعقوبة وحسب قانون البلد، وفي بعض الحالات يتم تركهم من أجل صفقة أو العمل معهم.. وهذا حتى يساعدونهم في الإطاحة بالمجرم، وتبقى المواد من حيث الحكم متفاوتة،

فمثلا الإطاحة بكمية أكبر أفضل من كمية أقل، هذا يدخل في خطط الشرطة وحيلها الماكرة، وعلى أية حال ها هي تأتي به مقيدا وتدخله جهاز الأمن، كان الضابط قد دخل أولا ثم تبعه عون الشرطة يمسك الشاب من يده، الأعوان الآخرين كانوا قد انقسموا وكل ذهب يكمل عمله الخاص، فراح يدخل على المحقق طالبا التحقيق معه، حيث أعلمه بما وجد عنده من أغراض ثم خرج الى مكتبه. وإذا به يقوم من مكانه فأمسكه، ثم فك القيود عن يديه المكبلتين، لكن عون الأمن بقي واقف بجانب الغرفة حتى لا يهرب أو يحدث شيئا ممنوعا:

– اجلس

– وهو يجلس، شكرا

– وهو صارم كباقي العمال وينظر في الأغراض التي قدمها الضابط، ماذا فعلت حتى جاؤوا بك؟

وهو يجيب بهدوء:

– لا أدري لقد كنت خارج من المنزل فقبضوا علي ثم داهموا منزلي

– الشرطة لا تفعل شيء حتى تشم الرائحة

– أي رائحة! ماذا تقصد؟

– وهو يخرج الأغراض من الحقيبة، ما هذه الحقنة، الملعقة، وهذا الخيط!؟

يراوغ في الاجابة:

– أشياء خاصة

– ماذا تفعل بها؟ هيا ارفع على ذراعك

يرفع قميصه عن ذراعه، فينظر فيرى منظرا مقززا أزرقا، ولونا معكرا فيه حمرة:

– تتعاطى شوشنة؟

– يلزم الصمت قليلا ثم يرد، نعم أستهلك ذلك مع الأسف

– مستهلك أم بائع؟ تفيد مصادرنا أنك تبيعها

– لا هذا خبر كاذب

المحقق وهو يذكره بالبيت القصديري الذي كان بالقرب من المقبرة:

– ما علاقتك بالبيت الموجود في الوادي نهاية المقبرة؟

الشاب المروج كان يعلم قبلها أنهم داهموا ذلك البيت وأنهم سيصلون إليه ويباغتونه، فنظفه وأفرغ كل شيء، باستثناء حبة ليريكا تلك والشيفرة الحادة ولفائف الأوراق لأنه نسي ذلك، رغم هذا كان على علم بالقانون والأشياء التي تدفع الى القبض ودخول السجن، وها هو ذا يرد بحيلة ماكرة:

– ليست لي علاقة به، عندما أريد الانعزال أذهب أجلس هناك هذا مافي الأمر

– نعم تذهب وتتعاطى شيئا خطيرا لا أن تنعزل، وجهك أصفر يوحي بذلك ألا تشعر بما تفعل؟!

– وهو يروح معه في الحديث بحذر، للأسف أنا مدمن، أحاول الإقلاع حضرة المحقق

– يستدرجه ببطئ، هناك شاهد يقول إنك تبيع ممنوعات ولقد جاءك أمس حتى يشتري ولم يجدك

وهو يكتم نشاطه في الوادي:

– لقد قلت لك أنا لست مروجا ولا أملك ما أبيع له، من هذا!

– لا يهمك الأمر، المهم أنه يعرفك وقال إنك تبيع أنواع من المواد المؤثرة للعقل، وجدنا في البيت كبسولة من البريجابالين هل هي لك؟

– يفكر قليلا، لا أنا أتعاطى شوشنة لقد صارحتك

– لمن إذن؟!

– ليست لي إجابة الكل يجلس في ذلك المكان، إنه ليس مكان خاص لم يكن للمحقق أن يكمل معه التحقيق في اختطاف الولد حتى يطلب والد الضحية، لكن قرر الخوض معه في قضية السحر الذي وجدوه في المقبرة، فأكمل يسأله بعد أن أخرج له صورة المسحور التي احتفظ بها عنده:

– تعرف هذا؟

– وهو مستغرب من شكلها المعفن والمخرب، لا أعرف!

– لقد وجدناها في نهاية المقبرة على طريق الوادي الذي تجلسون فيه، إن كنت تعرف شيئا قل

– الشاب لا يزال ينظر في الصورة المشوهة على مكتب المحقق يحاول التعرف عليها، لا أعلم حضرة المحقق

حين علم أنه لا يعلم انتقل معه الى حيل أخرى فأخرج له صورة الرجل المشتبه به الذي رسمه سليم بالأمس، كان يبدو واضحا للشاب عندما رآه، حتى إن المحقق شعر أنه يعرفه لأنه أومأ بثقل رأس وضمير، لكن قال لا أعرفه! فأسر المحقق بالضغط عليه وإعطائه أسئلة مكثفة حتى أوصله الى الاعتراف بماهيته فقال له:

– هذا رجل مدمن شوشنة وهو يأتي من حين لآخر حتى ينعزل في الوادي.. لكن لا أعلم أنه ساحر!

– لا يهم سنعلم

وبعد أن جمع الأجزاء الأولى من القضية، طلب من عون الشرطة إبقاءه في السجن الانفرادي المؤقت الى حين، وها هو ذا يخرجه من غرفة المحقق وينفذ ما قاله، عندئذ يمسك الهاتف ويتصل بسليم مباشرة حتى يطلعه بآخر المستجدات، ويطلب منه القدوم حتى ينظرا في أمر ابنه، كان وقتها في منزله هو وعائلته، أباه في ذلك الحين رجع الى روتردام حيث بيته، أمه

بقيت مع زوجة سليم وجدتها حتى يساندون بعضهم البعض ويجتازون مرحلة الفقد، خاصة هيلينا فقد ضعفت ولم تكن قوية مثل ما كانت عليه في الماضي، فالصدمة أثرت على حياتها وأعجزتها عن الحركة والعمل، وكذلك الكتابة، فهي أغلقت عقلها وأمسى قلبها فارغ لا يفكر سوى في اختفاء ابنها، كان زوجها قد حاول أن يهون عليها، لما قال لها أن ابننا أخذته امرأة، والذي رآهما قال بأنها لم تؤذيه، لأنه لم يسمع صراخا ولم يرى حركات مؤلمة، وليس الرجل كالمرأة، وعلى الرغم من هذا ظلت فكرة الاختفاء تلقي السموم على القلب وتجعله يضعف، لأنها بالذات فكرة مسمومة لا يجتازها إلا من ذاقها وجاهدها. وعلى أية حال فعندما فعل ما عليه وصبر وجاءه الاتصال، خرج مسرعا راجعا لجهاز الأمن بسيارته، كانت الساعة الثالثة مساء، الشمس قد ارتفعت وانحنت، الضجيج يعم المدينة كالعادة، والطرق ممتلئة بالسيارات والحافلات، وبعد مرور عشرون دقيقة في ذلك الازدحام، كان قد أوقفها ودخل المخفر مليئا بالأسئلة التي كان يتمنى الإجابة عنها الشاب المروج.

وحين جلس سليم في غرفة التحقيق كان المحقق قد ناقشه قليلا حول طبيعة الأسئلة وكيفية استجواب الشاب، فهم كانوا على بعد خطوة من اكتشاف ما قد حدث، خاصة عندما أدركوا أن المرأة والشاب والرجل الغريب كانوا على مجال زمني واحد، وفي مكان ليسوا بالبعيدين فيه عن

بعضهم البعض، فالرجل مر على سليم وهذا كان مستبعد بالنسبة له، أما المروج بشهادة الزبون، فقد رآه قادم من مكان ما عندما كان فوق المنحدر المؤدي الى الوادي الطويل، هو والحارس، أما المرأة بشهادة المتطوع، ثبت أنها كانت تجر الولد معها في مكان ومجال زمني واحد، وإثر كل هذه الاحتمالات والفرضيات ناد المحقق عون الشرطة، حتى يأتي بالمشتبه به ويكمل معه التحري، وحينما جاء به أجلسه على الكرسي وفك قيده وقابل سليم الذي كان يجلس هو كذلك عند مكتبه وراح يدخل مباشرة في السؤال:

– هذا الرجل تعرفه؟

– وهو ينظر فيه، لا أعرفه

– معك حق، لكن رأيتك في الوادي تنظر فينا أنا والحارس!

وهو يرجع بعقله للوراء:

– نعم صحيح لا أهرب من هذا فهي مجرد رؤية عابرة فقط

– المحقق وهو يعلم ذلك يعطي له طعما، أين كنت قبل أن تراه في ذلك الوقت؟

– في المدينة طبعا ثم نزلت كعادتي

– لم نجدكما أمس هل هربتما؟

يجيب بأريحية:

– ليس عندي شيء حتى أهرب به لقد غادرت المكان عندما الغروب

– والرجل الذي كان يحمل الكيس على ظهره نزل في الوادي واختفى ثم ظهرت بعده ألم تكون متواعدا معه؟!

– لا أعرفه لكن أراه أحيانا منعزلا وحده ثم يغادر

المحقق يتعمق معه:

– هل كان يحمل معه شيء أم لا عندما رأيته البارحة؟

– الشاب مدركا ما يقول، لا أعتقد كان لا يملك شيء

– ينظر الى سليم ومشيرا اليه، حسنا اسمع الآن هذا الرجل اختفى بالأمس ابنه في المقبرة على نفس الساعة التي كنتما أنتما فيها هناك

وهو ينظر لسليم نظرة تعجب واستغراب:

– حقا لم يجري الخبر ولم أسمع بذلك

– نعم نحن متحفظين لحد الساعة ونعمل في صمت، قل ألم تلاحظ شيئا؟

– يصارحه، بالطبع لا

سليم يضيف:

– وغير الولد ماذا رأيت في ذلك الوقت عندما نزلت من المدينة؟

– لا أذكر رأيت أشخاص عدة

– المحقق ضام يديه، ألم ترى امرأة قصيرة القامة ضواحي المقبرة ما بين الخامسة الى السابعة؟

يندهش الشاب ويشرد بعقله كان قد توتر قليلا عندما سأله لكن يجيبه بصعوبة لأنه كان يخبأ شيء في داخله:

– نعم رأيتها لكن لا أدري أين ذهبت

– متأكد؟ ولما أنت متوتر قل؟

– لا أعلم لما تسأل!

سليم يصارحه:

– نحن على علم أنها هي من أخذت ابني لهذا نحن نريد منك أن تساعدنا

الشاب المروج يفاجأ عندما أدرك أنها هي الفاعل، وفي نفس الوقت ارتاح من التهمة التي كان يظن أنه سيلقونها عليه، لكن وافق ذلك شعوره بالذنب وثقل ضميره والقهر، حين سمع أن المرأة اختفت بالولد فهو إنسان حساس مضطرب نفسيا واضطرابه يحدث عندما يسمع شيئا لا يحبه أو يكرهه، وخاصة عندما تظهر أعراض إدمانه والحاجة الى المادة، كما أن إدمانه جعله يحب التباهي ولفت الانتباه، وكذلك الرغبة في الانتقام، وكل هذه النقاط أمراض قلب لا تشفى حتى تعالج من الإدمان، والابتعاد عن الآفات الاجتماعية، الشاهد أنه صاحب حيلة مغامر يحب المال، يعيش

دون عمل ولا يعمل كما يعمل مختلف البشر، هو يريد أن يكون استثنائيا مستقلا وذو هيبة في المجتمع، حتى أنه كان يطمح أن يكون أكبر المجرمين وأخطرهم دون منازع، هذا ما كان في فلسفة تفكيره، ولا يترك مجالا لمتسلط يعيق عمله، استغلال الناس بالمؤثرات العقلية والسيطرة على نفوسهم، جعله يشعر بجنون عظمة، وبالرغم من كل ما يكره من البشر والمتطرفين ورجال الدولة، يكره الى جانب ذلك النساء، فعندما سمع أن سليم قد اختفى ولده، تحرك قلبه لا اراديا، وهذه فطرة الانسان اتجاه الولد، فحتى لو لم يكن الانسان متزوج او ليس له اولاد غالبا ما يميل القلب لرقتهم، ولطفهم وبراءتهم، بغض النظر عن الفئة التي تكره الولد فهذه بحاجة إلى إعادة النظر في ذلك والتشافي، وإثر ما بلغه وشعر به اعترف وقال لهما أنها امرأة مدمنة ترامادول فتعجبا ورد المحقق عليه:

– وكيف عرفت؟

– قال لي صديق أعرفه من قبل

– سليم يتوتر قليلا، وهذا الصديق كيف عرف؟

وهو يحمي نفسه:

– لا أدري ربما شاهدها تشتري ذلك

– قل لنا أين نجد هذا الصديق؟

– الشاب المروج يحاول إبرام صفقة، لا أستطيع هو غائب عن المنطقة، لكن دعني أخرج وسأطيح بهذه المرأة مع أول فرصة

يتنفس سليم الصعداء وينظر في المحقق، كان هذا الأخير ينظر فيه عندما قال له الصفقة

– كيف سنثق فيك؟

– لا أدري الأمر يعود إليكم

– سننظر في الأمر..

القبض على الساحر

لا شك أن المحقق وسليم قد استنتجا عدة أمور، وفهما أن الشاب المروج له علاقة سطحية مع الخاطفة وصاحب الكيس، لأنهما عندما ربطا خيوط الأجوبة باتا متأكدين أنه مروج، وهو من يبيع لهما، وإلا لما قال عنهما أنهما مدمنين، المدمنون يعرفون بعض، الرجل مدمن شوشنة والمرأة بريجابالين! خاصة عندما انتهى بطلب صفقة مع الشرطة فهو كان متأكد أنه سيقحم المرأة في المصيدة بدليل أنه كان يبيع لها، وتأتي طالبة المادة من عنده، وهذا ما يفعله الإدمان يجلبك الى مستقنع السيطرة، ويقضي عليك بكيمياء التخدير، وصفقته هذه لم تأتي هباء فهم أدركا أن أعراض الإدمان تجره الى النجاة والحاجة الى الحقنة أكبر من الولد! باستثناء شعوره بذروة الذنب والضمير الذي قد ظهر على ملامح وجهه المتخفي بالعجار والذي ساهم في وضع حد للمرأة التي أطاحت به دون أن تشعر، وأيضا شعوره بالقهر لم يأتي هباء، فهي لو رجحنا لوجدنا أنها قد خدعت الوالد والشرطة وجاءت بالمروج، وهذا الأخير رغبه في الانتقام منها وضرب عصفورين بحجر، لكن سليم والمحقق قرآ ذلك من ملامح عينيه ومن اعترافه. وحينما أكمل معه أرجعه الى السجن الانفرادي، كان الوالد قد غادر بتوتر أقل الى بيته وظل ذاك ينتظر الضابط الذي كان في دورية خاصة للإطاحة بالمدمن

الآخر، حتى يصل معه لحل نافع، العمل دام مع الشرطة يوم تقريبا ألقوا القبض فيه بالغريب بعد أن راقبوه يحاول الدخول الى بيته في شارع .....ن، وذلك عند الساعة السابعة مساء فعندما باغتوه وداهموا منزله برخصة تفتيش وجدوا أقمشة وملابس ملطخة تحت سريره في غرفته، أوراق ممزقة وكتابات غير مفهومة، كأنها طلاسم وتعويذات وسط كتبه، كانت تظهر أنها قيد الإنجاز، فهي لم تكن محكمة كانت متناثرة، وفي حديد سريره وجدوا أقفال صغيرة متوسطة الحجم، مقفولة تربطهم سلسلة من حديد، صور مشوهة بها حبر في جيبه، الشاهد أن مكانه كان مظلم، فيه العفن والشر، كان المنظر مقزز لا يبعث الراحة، وبعد القبض عليه تفاجأ ولم يجد ما يدافع عنه، سوى أنه اكتفى بالسكوت، فعملت الشرطة على جمع الأدلة والأغراض بشكل دقيق، وفصلتهم عن بعضهم البعض، وجاءت بالساحر الى جهاز الأمن، طالبا منهم الضابط أن ينقلوه الى السجن الانفرادي الى حين، الأغراض حولت الى المختصين لتفكيك السحر وإتلاف مفعوله، المحقق كان قد وصله الخبر عندما دخل عليه وفي يده أكياس من نفس الشكل:

– مرحبا، الكيس الذي وجدناه بالأمس هو من ألقاه أنظر كل يوم يلقي كيس خاص بشخص ما..!.

– هكذا إذن.. جيد أنك أمسكت به غدا أحقق معه علنا نجد معلومات أخرى

– وهو واقف أمام باب الغرفة، ماذا فعلت بالمروج؟

– لقد اعترف وقال إن المرأة مدمنة بريجابالين لا يعرفها أما الساحر مدمن شوشنة!

متعجبا من الاجابة:

– اعترف أنه يبيع لهما أم ماذا!؟

– لا قال إنه مستهلك فقط لكني تأكدت أنه الفاعل، يبدو أنه يحاول الدفاع عن مصلحته

وهو مستغرب:

– يعرف إدمانهما ولا علاقة له بهما، مفارقة عجيبة

– المحقق يردف، في الأخير قال إنه يستطيع مساعدتنا والإطاحة بالخاطفة يعني يريد إبرام صفقة

– حسنا نتركه ونترصده، هدفنا الطفل فهمت..

بعدما توصل الزميلان الى حل وخرجا من العمل بقي المجرمين ماكثين في مخفر الشرطة، كان سليم في ذلك الوقت لا يعلم أنهم أمسكوا بالساحر لأنه مكث في بيته مع أمه وأهله، كانت هيلينا منزعجة من خبر أن ابنها أخذته امرأة، لأنها كانت في حالة لا تستقبل فيها إلا خبر واحد يطمئنها،

وهو أننا وجدنا ابنك سالما معافى، وهذه فطرة المرء لا يستقر حتى يضمن، والضامن هو الله، إذ هو أخبر الجميع وقتها ولم يفسر، فكلماته كانت رؤوس أقلام: امرأة اختطفته، متطوع شاهده، مروج يريد صفقة!

وهذا سبيل متابعته، بالتفاصيل وشهود العيان، لكن الآثار لا تكفي دون الروح والبدن. وعلى أية حال فلقد نام من نام وبقي من بقي وفي الصباح عاد الكل الى عمله، كان الضابط والمحقق قد دخلا على الساعة التاسعة صباحا، أما سليم فقد ذهب الى المدرسة التي كان يقرأ فيها مجيد في صف الرابعة من التعليم الابتدائي، كان النهار مشمس ربيعي مزهر، والحياة مزدحمة كعادتها، المجرمين كانا كل في سجن انفرادي يصلهما الماء والأكل، لكن هذا لم يكفي فالمروج سارع يطلب السجائر حتى يزيل القلق والساحر كذلك.. فهما لم يجدا بديل الإدمان سوى في التدخين والتدخين مثله مثل شتى المواد المؤثرة، الاختلاف في الدرجة فقط، وهذا لم يكن يهمهم بتاتا، همهم سد الحاجة وكفى، ولأن الصبر كانا لا يعرفانه إلا في عدم الاعتراف، ومع بداية عمل المحقق طلب من عون الشرطة الإتيان بالساحر وإدخاله، كان منزعج وآثار الإدمان ظاهرة على وجهه، فهو كان متبلد العواطف متغير الوجه، أسمر البشرة، رشيق الجسم وقصير الطول، خمسيني السن، قديم الملابس. وها هو الشرطي يقعده على الكرسي ويسأل:

– كلما أسرعت في الإجابة خففنا عنك العقوبة وأنت أدرى بحالك، بعد أمس في المساء أين كنت؟

– الساحر أدرك أنه هالك فعمل على التخفيف، في المقبرة

– لأي غرض؟

– يصارحه حتى يباغته، حتى أشتري شوشنة أنا مدمن لا أدري ما أفعل

– من أين تشتري ذلك؟

– من أحد الأشخاص لا أعرفه

المحقق يخرج صورة المروج ويضعها فوق مكتبه:

– هو في قبضتنا قد قال عنك ما قلت الآن، أكيد رآك

– الساحر ينظر في الصورة ثم يرد بالمثل، نعم هذا هو بالضبط

– تشتروا في ذلك الوادي؟

– نعم هناك بيت قصديري ربما تعرفونه نأخذ فيه الحقنة

وهو يسأله:

– ماذا تقصد؟

– إنه يبيعها لنا عن طريق الدم لا يعطي لنا المادة الفعالة أما بقية المواد فيبيعها للناس بشكل عادي

– متعجبا، ألهذا الحد تغامرون، لماذا؟!

– لا أدري ربما حفاظا على المكونات قال لنا يوما أنه لا يبيعها كمادة صلبة أو مسحوق

يلقي عليه طعما:

– تأتيه النساء؟

– نعم لكن يبيع لها مواد أخرى بريجابالين، ترامادول هذا ما أعرف

– ومن أين يأتي بهذه المواد؟

– يصارحه، لا أعلم

كان المحقق قد تأكد من عدة أمور فراح يدخل في قضية السحر:

– داهمنا المقبرة ووجدنا كيس فيه سحر، هل هذه الصورة –أخرجها له–هي لك؟

– لقد كنت منتشيا لا أذكر ماذا فعلت!

– لا يهمنا إدمانك أنت أقحمت نفسك بنفسك والقانون لا يحمي المغفلين أجب

– نعم أنا الفاعل

المحقق يدون ويفكر:

– رميت أكياس أخرى من قبل؟ لقد وجدنا أكياس فارغة مماثلة في غرفتك

– وهو يخفي الحقيقة، ذلك الكيس فقط

– ولما تفعل كل هذه الأفعال، لأجل المال؟

يجيبه دون تفكير:

– نعم المادة غالية للأسف

– وحال بك الأمر أن تسحر الناس

الساحر وهو يجهل عاقبة الأمور:

– هم يطلبون ذلك مني وكيف أمتنع عنه أنا. إدماني يقحمني!

– ألا تعتقد أنك تسيطر عليهم بأفعالك الوسخة؟

– نعم أعلم لكني لست الفاعل الوحيد هم يحاربون بعض وأنا الوسيط

– أصمت، الأبرياء ما دخلهم!

عندئذ غضب منه المحقق فأقفل فمه وملفه، وطلب من عون الشرطة إحالته الى السجن، الى حين محاكمته، ثم راح الى مكتب الضابط يحمل معه عدة محاضر في يده، كي يطلعه عليها، كان قد اكتمل منها خاصة بالمتهمين والمجرمين، وقتها كان يقرأ الجريدة اليومية ويتناول قهوة الصباح، وعندما دخل عليه جلس ووضع الوثائق على مكتبه، في الحقيقة هي تحتاج وقت حتى يتم الاطلاع عليها والفصل فيها وختمها، لكن في قلب الوقت قدم العمل حول قضية سليم والمروج والساحر وبدأ يكلمه:

– سيادتكم، الساحر انتهينا منه وقد اعترف بسحره وقال إنه مدمن شوشنة يشتريها من عند المروج. إنه يفعل شيء جنوني يبيع المادة

عن طريق الدم وظهر لي أن هذا ليس هدف مالي! أما بقية المواد فهو يبيعها بشكل عادي كباقي المروجين، وقال إن النساء تأتيه تطلب المادة أيضا، مما يجعلنا نلاحظ أن الخاطفة تتعامل معه

- هذا مبالغ فيه، الترويج بالدم فكرة جنونية يريد صاحبها الانتحار أو البروز لا غير

- نعم هو لا يدرك عواقبها الوخيمة.. ما الخطة الواجب اتباعها الآن؟

الضابط بصرامة يشدد:

- حينما نطلق سراحه سنراقب تحركاته ونطيح به وبمن خلفه، لأن مجرم كهذا ولابد أن نتوقع منه أي شيء

- المحقق يدعمه، معك حق يجب مراقبته وإيجاد مصدر هذه المواد المؤثرة للعقل، الساحر يقول إن الوادي نقطة بيع مهمة. قد يكون يخبأ فيه السلعة!

- كل شيء وارد

اكتشاف جديد

وبالتالي وضعت الشرطة مخطط مراقبة وإحاطة بالوادي وبيت المروج، وعميل سري يتبعه في غالب تحركاته، وجاءت هذه الاستراتيجية لكون القول الراجح أن الوادي نقطة بيع مهمة، والبيت يمكن فعل فيه أي شيء، والعميل يساعد كثيرا في حل المشكلات التي تصعب على إدارة الأمن، فلعمل في الشوارع يحتاج تحري مكثف ودقيق، خاصة إذا كانت القضية كبيرة التأثير وصعبة الحل، وعلى أية حال جرت الأمور بإطلاق سراح المروج في منتصف النهار، كان وقتها قد أرهق من الفكرة وازدادت أثار إدمانه حتى انزعج وأصبحت لديه رغبة شديدة في التعاطي، لأن إدمانه فات الشهور والسنة ولم يشعر بذلك إلا في هذه الحالة التي كانت الأولى من نوعها، فما كان عليه سوى أن يجد فرصة لضرب الشوشنة، لكن في نفس الوقت كان يدرك أنه أصبح مراقب وأن الشرطة لن تتركه حتى تطيح به، فما أن لبث ساعة في بيته واستحم وغير ملابسه خرج من الحي الذي يسكن فيه، حتى دخل في بيت أحد الجيران، كان البيت يظهر من الخارج قديم لا يبدو بيت أغنياء، لأن بنايته كانت من الحجر الأصم، بابه خشب دون زخارف، لم يكن كبير ولا صغير، تستطيع عائلة صغيرة أن تعيش فيه عادي، لكن الأمر الذي يزيد حيرة وهو أن البيت لم يكن فيه إلا عجوز طاعنة في السن، حوالي سبعين سنة، وابنتها تعمل في

السوبرماركت، ولديها ابن يعمل في الثكنة العسكرية بهولندا، كانت مريضة لا تعمل إلا قليلا، لصعوبة تحركها على عظامها، لم تكن تساعدها إلا ابنتها وابنتها لا تأتي إلا في وقت الدوام، عشية، المروج كان يعرفها من قبل، فعندما دخل عندها رحب بها وتكلم معها وكأنه ابنها المدلل، فردت عليه التحية وراحت تسأل عن غيابه فكذب عليها وتستر الأمر، الظاهر أنه كان يعاملها في إطار عمل وتعاملهما كان بارد لا إحساس فيه، إلا من طرفها، فهي كانت تكن له رابط مودة جعلها تتعامل معه بكل اطمئنان وراحة، خاصة وهما جيران. وما إن دخل بعد دقائق ذهب مباشرة الى مكان كانت تضع فيه الدواء، فأخرج من الكيس دواء الترامادول ونزع من المشطة قرصين ودفعهما مباشرة عبر البلع الى معدته، ثم أرجعه الى مكانه فوق الطاولة، كانت تعلم بصفاته وسلوكياته لكن لا تتدخل كناصحة أو مرشدة، لأنها هي أيضا كانت تأكل هذه المادة وتدرك مفعولها وأثرها في جسم الإنسان، لكن الجهل، وللعلم أنها كانت تأكل في إطار قانوني وهذا ما جعلها تضع الدواء في أي مكان شاءت، وكأنه دواء حلال، الحاصل أن المروج قد شعر بالنشوة والهدوء بعد تناول الحبتين، وبدأ عقله يخطط.. وها هو يكلم العجوز:

– نايا لدي صفقة هيئي نفسك سنذهب الى الطبيب

– هل نطيل؟ ستأتي لارا

– لا عمل خفيف اليوم وسأكمل الباقي أنا

وها هي ذا تذهب تغير ملابسها وتخرج معه وكأنها أمه، كان قد رأى الساعة فوجدها الواحدة والنصف مساء، فراح يأخذ سيارة أجرة ثم أركبها من الخلف، بعدها طلب من السائق الذهاب الى الشارع ....ط حيث دكتور العظام المختص–جيدانوف– وبعد فوات ربع ساعة وصلوا الى عيادته الخاصة كان ازدحام السيارات قد أثر على الوصول، فدخل هو ونايا فوجدوه وحده في غرفة التشخيص، فاستقرا يجلسان عند مكتبته، كان يبدو حوالي خمسة وستين سنة، أبيض البشرة، أمرد، نحيف الجسم، يلبس نظارات ومئزر أبيض، شعره يمشطه يمينا، لديه سماعات أذن على رقبته وخاتم فضة في يده، لا يلبس حذاء عمل، المهم أنهم راحوا يلقون التحية على بعض:

– مرحبا ديغا، نايا، كيف حالكما؟

– في حالة جيدة

– لا بأس أحسن

يعطي له الطالع مباشرة:

– لدي صفقة أريد وصفة دواء لي ولنايا على السريع، لقد كنت غائب لأسباب خاصة

– الطبيب ينظر في عينيه، كل شيء على ما يرام ديغا؟

يرد متأسفا:

– نعم لكن اعذرني أنا على عجلة من أمري فقط أريد إنهاء الصفقة

– العجوز تشعر به، لما قلقت؟

– لقد سمعت خبر أقلقني أريد تصفيته

وهي تمد يد العون:

– نساعدك فيه؟

– لا أبدا سأفعل ذلك وحدي

– كما تشاء

كان الطبيب جيدانوف يكتب الوصفة وهو يسمع ما يقول وعندما أكمل ذلك قال:

– يكفيك هذا؟

– نعم المرة القادمة نرفع الكمية

حينئذ أعطى له ديغا المبلغ المطلوب وشكره وراح يخرج مع نايا راجعين الى البيت، وبعد أن أخذا سيارة أجرة أخرى طلب من السائق أن ينزله في أحد الأماكن الضيقة ويكمل بها الى حيث منزلها، وبعدما سار مشيا على الأقدام مدة خمس دقائق وصل الى إحدى الصيدليات الموجودة في قلب أمستردام، فدخل وذهب يشتري الدواء المطلوب، كان يعرف عمال الصيدلية جيدا كانوا ثلاثة، فذهب الى أحدهم وأكمل شراء الدواء على

السريع، كان مفعول الحبتين التي أكلهما يؤثران عليه ويقل مفعولهما مع مرور الوقت.. ومن جهة أخرى كانتا نشاط بالنسبة له وشجاعة، لكن الأصل في صفاء الذهن وسلامة البدن، فالإنسان دون عقل جسد خامل ودون جسد عقل فاسد، وبعد كل هذه التحركات كان عميل الشرطة قد فقده وهما ذاهبان الى الطبيب، وكل ما عرفه أنه دخل وخرج ولم يعد مع العجوز، المروج وقتها راح يسرع الى المقبرة حيث الوادي الطويل، لكن بحذر.. لأنه كان يحمل معه ممنوعات يريد الربح منها والرجوع بها الى المرحلة التي كان فيها قبل أن تمسك به الشرطة، وتستنزف منه يومين من الغياب عن الساحة، وعندما وصل بعد مرور ربع ساعة وهو في سيارة أجرة نزل وراح يخبأ السلعة في مكان جهنمي قريب من البيت القصديري يصعب إيجاده، لأنه كان محصن بالتراب وعلى شكل نفق، كان فيه عدة مواد مؤثرة، قطعة صغيرة صلبة من التشوشنة وحبات ترامادول وبريجابالين، باراسيتامول وقارورات كحول، في ذلك الوقت كان حذرا ولم يقترب من المخبأ حتى أدرك أنه وحده، وللعلم أن الشرطة في ذلك الحين لم تكن هناك ولم تبعث من يحيط المكان بعد، وهذا الوقت استغله حتى لا يتم الإطاحة به، فهو أيضا كان يعلم أنه في حرب معها ولابد من الحيطة والحذر، وعلى أية حال فقد ضمن المكان جيدا وحضر نشوته ثم رجع

مسرعا الى بيته دون ترك أي أثر خلفه، مغامرا بحقنة مليئة يضعها في جيبه من الشوشنة

كل هذه التحركات والسرعة في العمل كانت بسبب الصفقة، المروج لم يغير فكرته رغم وجود الحلول التي تجعله يطيح بالخاطفة، لكن هو كان لديه رأي آخر في أن يبقى في الدرجة الأولى في الإجرام، متباهيا وعنيدا ومتسلطا بطريقته الخاصة، كانت رغبته في الانتقام تعلو مع مرور الوقت، ويقينه في خداع المرأة كان يراه قريب، حتى الساحر وبعض المجرمين عندما سمع أن الشرطة قد أمسكت بهم سعد وارتاح من تحركاتهم الفاشلة، وكأنه يريد البقاء وحده في الساحة يدخر المال ويسيطر على المنطقة. سليم كان في ذلك الوقت قد أخبر مدير المدرسة والمعلم بالحادثة، فحزنا من الخبر وتمنيا رجوعه في أقرب وقت، وبعد ذلك سمع زملائه الصغار فحزن من حزن وصدم من صدم، كان لا بد أن يستمع كل من يعرف الطفل، لأنه صاحب قيمة وله علاقة مترابطة معهم، الحقيقة مرة وحلوة في أوقات مختلفة، لكن يبقى تقبل الوضع، وإلا فلا اجتياز يحصل في الحال، لأن المشكلة يجب التفرغ لها، مواجهتها والصبر عندها أو حلها. ولم يتوقف الخبر هنا وفقط بل وصل الى وليد أخ سليم الذي كان يعمل في الثكنة العسكرية في ماستريخت، حيث أعلمه الأب وهما يدردشان في الهاتف مع أنه كان متحفظا، لكن عند الابن أصبح العكس تماما، لا كذب ولا مراوغة خاصة في أمور

خطيرة كالاختطاف، على كل، حزن الرجل كعادة الغير وجاء من العمل بعد أن سنحت له الفرصة ذلك.. لأن المكان الذي كان يعمل فيه حساس وشديد المعاملة.

وها هو ذا يجد والده وحده في المنزل فرحبا ببعضهما البعض وتبادلا الحديث.. ثم راحا يخرجان من المنزل للقاء سليم، كان وقتها في البيت يتكلم في الهاتف أيضا، لأن المحقق اتصل به حتى يقول له أن الشاب تم إطلاق سراحه وأن الساحر أغلق ملفه وسيلقى حتفه، وأبلغه أيضا أن المرأة قد جاءت تشتري المادة قبل أن يتم اختطاف الصبي.. هذا ما أشار إليه الساحر، ثم انتهى الحال بإعادة الكرة والتفكير فيه، والحنين إليه، لكن دون جدوى، فما كان عليه سوى أن دعا وقال: **الله المستعان**، وراح الخبر يصل الى صديقة هيلينا الجارة التي ساندتها طوال حياتها، مذ أن كانتا صغيرتين، فهي أيضا سمعت مؤخرا.. وللعلم فقد تزوجت وغادرت المنطقة لكن لم تكن بعيدة كانت في نفس المدينة، كل يسكن في حي، كانت تحبه معجبة به، وبذكائه وحيائه كونه ولد صديقتها المقربة، التي كادت تكون أقرب الى الأخت. فما عسى أن يحدث بعد ذلك سوى لقاء الأخ مع أخيه بعد شهر ونصف غياب:

– مرحبا أخي، كيف حالك، أهلك؟

– مرحبا وليد، أبي، أدخلا الحمد لله

وهو متأسفا:

– أعتذر أخي لم أسمع وسمعت متأخرا

– لا بأس أنا الذي. اعذرني كان علي إعلامك لولا شتات العقل

– الأب ينقذ الموقف، لست الملام

وليد كان قد التقى بأمه أيضا لحقت المكان وإذا به يقبلها:

– أمي مرحبا بك، أنت بخير؟

– نحمد الله على كل الأحوال

– نصبر، إن شاء الله نجده

ثم رجع لأخيه ينظر فيه:

– هل من جديد أخي؟

– نعم الشرطة تعمل جزاهم الله خيرا

– الأب، أعانهم الله

– سليم يضيف رأس قلم مهم، لقد علموا أن المرأة مدمنة وقبل أن تخطف مجيد جاءت تشتري المادة بالقرب من المقبرة

يفهم في خطط الدولة فيعلق:

– المدمن يعود إذن، قد تكون فرصة جيدة للإطاحة بها

– إن شاء الله تعود

– بهدوء، احتمال كبير فالإدمان يقود للهاوية

الأم كانت منصتة:

– كافينا الله شرها

– وهو واقف في فناء الدار، علينا ألا نثق، سليم لننقسم ونبحث عنه.. أعطني صورته

– يتدخل الوالد، بحثنا يا وليد لكن لا يهم سنحاول من جديد

وها هو يخرج صورة ابنه من جيبه ويقدمها له.. وفجأة يرن هاتف البيت فيذهب يحمل السماعة فإذا بصديقه علي الذي يعمل معه في المطعم كان قد رحب به وسأل عن حاله وأراد أن يطمئن عليه ويلتقيه وهو مع مدير المطعم الذي كان يريد كذلك رؤيته، وأن ينظرا معا في قضية ابنه مجيد، فقبل ذلك بعدما استأذن أخوه وأباه بحضوره الموعد والعودة فيما بعد، فلم يعلقا وذهبا يبحثان في أزقة أمستردام.. لكن خطة وليد كانت أعمق فهو عندما بدأ بالبحث راح يبحث ويسأل مختلف الأجناس حتى النساء كان يسألهم، زد على ذلك فقد دخل محطة المسافرين وسيارات الأجرة وسألهم أيضا، المهم أنه كان يعمل بحنكة وذكاء، بالإضافة الى مساعدة أباه الذي كان يعطي له الإمكانيات التي قد تفعلها المرأة للوصول الى المخبأ أو المنزل، من بينها استئجار سيارة أجرة والتي كانت الاحتمال الأكبر الذي تفعله في نجاح خطتها، وعلى كل حال كان كل طرف يبحث في جهة مصمما على إيجاد شيء. سليم قبل ذهابه الى علي ومدير المطعم

حيث تفاهما أن يلتقيا، كانا يريدان أن يأتيا الى البيت لكن وجود وليد والأب جعله يحدد موعد حتى تكون الأمور ميسورة، فالمسافة أصلا كانت شبه بعيدة بين البيت والمطعم حوالي نصف ساعة، المهم كانت الساعة في ذلك الوقت الثالثة مساء عندما التقى بهما وهما في شارع ....ح، كان مكتظ بالسيارات والناس، الشمس شديدة الحرارة لكن الأشجار أنقضت الموقف، وكذلك بعض الأماكن والبنايات العالية، لقد كانت مدينة جميلة بجمالها، حزينة بغياب ابنها، فحتما الأولاد لهم دور مريح فيها، ولولاهم لكانت مقرفة، تجد فيها إلا الكهول والشيوخ الذين يتحدثون ويطعنون ويغتابون بعض، لا إحساس ولا رقة، ترى تجاعيد وهرم وحركات عوجاء غير موزونة، تكون حياة لا تبشر بالخير لكن بالصغار العكس تماما السرور والاطمئنان والسلام، وهذه حكمة الله في خلقه صغار ثم نكبر، نبتلى ثم نفوز. الصديق علي عندما التقى معه للتو كان جميل البشرة، رشيق الجسم، قوي البنية، متخلق وذو لباس محترم، على وجهه لحية وهو مسلم الديانة، في نحو الثلاثينيات، أما مدير المطعم خمسيني العمر، سمين وصاحب نظارات ووجه أشقر، شعر أصفر، عينان زرقاوان وهندام منضبط ومنسجم، أبيض. الحاصل أنهم قدموا بالسيارة وسليم كذلك.. ثم استقروا في المقهى بالضبط، فرحبا به وبادر صاحبه علي:

– عزيزي كيف أنت؟

– كما ترى، مبتلى

مالك المطعم كان مسيحي:

– دع الأمور تسير على حالها وستأتي كما هو مقدر لها، لا تحزن نفسك

– إن شاء الله أنا أحاول

– عزيزي أنت أقوى ورأينا هذا في مواقف عدة، صحيح الأمر صعب لكن الاعتماد على الله يحطم كل شيء، اصبر واحتسب

كان جالس قرب المائدة بينهما:

– ماذا فعلت الشرطة ألم تجد شيء؟

– لا بالعكس لقد أعطت لنا أملا..

– رائع أخي العزيز قل ما هو؟

– لقد عملت صفقة مع أحد المجرمين حتى يطيح بالخاطفة في أول فرصة

المدير ينظر فيه متأملا:

– يبدو أنه مجرم يكره مجرم، غريب

– نعم في الحقيقة المرأة التي اختطفت ابني أسقطته دون أن تشعر لأنها كانت مدمنة والمادة اشترتها من عنده قرب المكان الذي جرت فيه الحادثة

– مدعما صارم في كلامه، يضرب الله الظالم بالظالم، إن شاء الله يزج بهما في السجن، ويريحنا منهما

– تحدث أشياء يندى لها الجبين، الى أين؟ مروج وخاطف وربما شيء أخطر

علي يدعو:

– الله المستعان

– سليم يعتذر، سأغادر اسمحا لي نلتقي

– لا بأس، أعطني صورته سأعلقها في المحل قد تجلب نفعا

حينئذ جلبها من السيارة وقدمها له، وها هو صديقه يطلب رفقة سليم ومساعدته بعدما استأذن من المدير، فتفهم منه الأمر وراح يركب معه.. ثم أخرج من قميصه عطرا فاخرا كان معبأ في زجاجة اسطوانية، صغيرة ملفتة، وذات لون ذهبي مبهج، أعطاه له:

– خذه مني هدية

قبلها منه وابتسم لا إراديا:

– جزاك الله خيرا

– ولك المثل عزيزي

وهو يشمها بعمق:

– رائحة رائعة

- بلين ورقة قلب، أعجبتك! حبيبي أنت
- أكيد إنها فواحة جدا وثمنها غال

يرد مسرورا:

- لا يهم ثمنك أغلى
- صل على رسول الله
- اللهم صل على محمد وعلى آل محمد

المعلوم أنه كان يحب له الخير مذ أصبحا زميلان في العمل، ثم أصحاب، فهما شاركا في العديد من المواقف.. وتكون رابط قوي بينهما، مع مرور الأشهر والسنين، حتى اعتادا على بعض وأحبا بصدق، لكن الأمر الذي زاده انجذابا إليه هو فنه وشخصه، فلقد كان جميلا برسمه ومظهره، ناضجا بأخلاقه ولباقته، كان يدرك أنه كان يعبد الله بأرقى السمات والصفات، وبكل ما هو طيب، فاختار له عطرا يليق به كهدية، يتقربا بها الى الله، فالله جميل يحب الجمال وطيب لا يقبل إلا طيبا

انتقام حبة الوداع

بعد يومين وعند الساعة السابعة مساء، نزل المروج مخدرا بمادة الشوشنة التي قضى عليها ونفذت الى الوادي. العميل كان يراقب تحركاته في كل مرة وفي مختلف الفرص، وهذا الأخير لم يكن يراقب جميع يومه أو ليله لكن كان معه في ساعات عديدة، أما المجرم فكان يتحاشاه ويعمل بحذر حتى لا ينقل المعلومات المهمة الى جهاز الأمن، رغم أن هناك أمور نقلها إليهم لكن ليست مهمة كثيرا بقدر ما يهمهم المول الأول للمادة المؤثرة، على أية حال، فلشاب خلال مرور يومين قام ببيع المواد التي جلبها من الصيدلية في هذا الظرف، لكن بخطة جهنمية (نعرج عليها في ما بعد) المهم قبل أن ينزل الى نقطة البيع أعاد الخطة وذهب يجلب السلعة بكمية أكبر هذه المرة، وذلك لتعويض مادة الشوشنة التي اكتملت وكان صعب عليه الإتيان بها، لضيق الوقت وبعد المسافة، ومراقبة الشرطة له، وللعلم أنه كان فطن عندما يريد الإقدام على جلب السلعة وبيعها رغم مراقبته، لقد كان يراوغ كثيرا.. حتى ينجح في البقاء وحده وتحقيق ما يريده، الشرطة في ذلك الوقت كانت قد أحاطت بالمقبرة، والعميل كان مهتم كثيرا بمسكنه وضواحيه، الشاهد أن الشرطة كان تعلم أنه يبيع للناس المؤثرات العقلية، لكن لم تكن تجد دليلا يجعلها تأخذ الزبون في حال جاء الى نقطة البيع واشترى، لأن الزبائن في الحقيقة قد أعلمهم أنه مراقب وقال لهم:

لن يخرج أحد من هنا حتى يأكل المادة ويترك الأثر عندي –يقصد به الغلاف– وبغض النظر عن إمساك المروج فهو كان في مرحلة صفقة نافعة، رغم هذا كان حذرا من باب تراكم التهم وعزل الأدلة، وعدم ترك الأثر لدرجة أنه اعتاد على نزع غطاء المواد، وإمساكهم في يده، ففي حالة الإحساس بالخطر كان يرى أنه يأكل جميعها المجنون، أو يلقي حيلة، هذه فلسفته! على كل حال تأتي الزبائن في الوقت الذي صرحنا به سالفا، كانت الشمس توشك على الاختفاء والنزول، الجو كان معتدل رائع، الهواء صاف في ضواحي المقبرة وعند المنحدرات الموجودة على الطريق الثانوي، المؤدي الى الوادي، المكان لو رأيته لوجدته فارغ، لكن عندما تتعمق وتجلس مدة من الزمن ترى الأعاجيب، لأن مجموعة من المنحرفين كانت تأتي حتى تشرب الكحول، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تأتي النساء المنحرفات تشتري المادة المؤثرة، كان المروج مخصص مكان مناسب، يلتقي فيه معهم والبيع لهم، ومن جهة ثالثة يأتون الرجال المتزوجون والغير المتزوجون، فيهم الصغار والله المستعان، كل هذا كان يجري في الخفاء بعيدا عن أنظار الشرطة وبخطة محكمة حتى لا يصلوا الى المروج، وكي لا يسقط مدمن أو زبون جاء يشتري حاجته، لقد كان كل شيء كالمقهى تشرب فيه وتخرج تلعب في المجتمع، وما إن تتعب ترجع ترتاح فيه. الحصول أنه في ذلك الحين وتلك العتمة التي نزلت في المكان

وقفت سيارة أجرة على الطريق الثانوي، نزلت منها الخاطفة وذهبت باتجاه الوادي.. لكن قبل أن تصل كانت تعرف المكان الذي يتم فيه البيع، وما هي الا دقائق مرت حتى جاء إليها وهو يراقب المكان، كالذئب البري. كانت في سن الثلاثين، مستورة بلباس أسود وحذاء أبيض، قبعة حمراء وملامح غريبة، قامتها قصيرة، عملاء الشرطة كانوا يراقبون المكان على بعد مسافة، يشاهدون الظاهر أما العمق فلا، وفي الليل ينتظرون إشارة. صاحب العجار كان لا يعرف أنها هي حتى أدركها واقترب منها.. وحين رحبت به استيقظ من غفلته:

– نعم مرحبا

– كيف الأحوال؟

– لا بأس كم تحتاجين؟ –لم يكن يطيل في البيع–

– أربع حبات من البريجابالين

وهو منتشيا يدخل عالم التمثيل بإلقاء عليها عرض مغري:

– أنا وضعت صفقة اليوم ببيع مشطة بعشرين يورو للزبائن، تريدين؟

– الطمع يدخل قلبها، بالطبع أريدها على الأقل تبقى لي أيام

– نعم السلعة جديدة وهي فعالة أكثر

بعدما اتفقا راح المجرم يعطي لها حبة الوداع هدية ماكرة، فأخذتها وأكلتها، ثم أخرجت المبلغ من محفظتها وقدمته له، كان يدرك أن الشرطة ستمسكها

وتقوم باعتقالها بسبب اختطاف الابن، لكن لم يكن يهمه الأمر سوى أن ينتقم منها بأسلوبه الخاص دون أن تشعر، كما لم يشعر يوما، لقد كان قاس ومخدر في نفس الوقت، يقطر كرها، منافقا، وعندئذ تحدث بصوت مخيف في تلك العتمة التي كان فيها:

– احذري الشرطة

فزعزع كلامه قلبها لأنها توهمت أن كلامه صحيح يقصد به أن الشرطة تراقبها وهي قد انتهت واشترت القنبلة، وماهي إلا لحظات تمر فتركب سيارة الأجرة بذعر كبير وترقب ضعيف مغامرة بـعشر كبسولات، تمسك بها في يدها، وحينما ركبت راح السائق يرجع من حيث أتى، وإذا بالمروج يشير بضوء الكاشف باتجاه العملاء.. معلنا أن الخاطفة هي بالذات، فتحركوا خلفها بحذر وترصد قوي، حتى يمسكوا بها، السائق كان يعرفها ويعرف حالها ويتعامل معها في مواقف عدة، لكن في إطار عمل فقط، لم يكن من النوع الذي يقترب أكثر أو يفهم أكثر، كان كل همه المال، حتى أنه كان لا يتحاور معها الا للضرورة، وكأن المادة التي تأكلها الخاطفة تجعله حذرا منها، ولا يعطي لها إلا رؤوس أقلام، المهم وهو في الطريق الرئيسي لمدينة أمستردام يقول لها بعد أن أدرك أنها لم تلقي عليه كلاما لخوفها وبداية مفعول الحبة يرتفع:

– الى أين؟ البيت!

– نعم تأخرت لدي حفل صديقتي سأذهب اليها.. تعال عند التاسعة

– لا مشكلة نحن في الخدمة

وحين أيقن الوجهة راح يزيد في السرعة، لكي يصل في وقت قصير، الطريق كان شبه فارغ لا ترى فيها إلا أصحاب المدينة، الشرطة كانت تلاحقهما حتى توقع بهما في الفخ، ولقد أعلنت للضابط أن المشتبه به قد ظهر ونحن بصدد إيقافه، لكن هو قال لهم لا تمسكوا بهما حتى نعرف مكان المختطف، المروج استغل الوقت فيما بعد وراح يكمل السلعة حتى يتوقف ويهدأ الوضع. وبعد مرور نصف ساعة تصل سيارة الأجرة وتتوقف أمام بيتها، فنزلت وأعطت له ثمن الأجرة، وعندئذ وقفت الشرطة بسرعة وتخويف، فأمسكت بهما، كان الشارع في ذلك الوقت هادئ وفارغ، فترة أكل وراحة، في تلك اللحظة صدمت الخاطفة من الموقف وراحت تصرخ وتبرر، أما هو فلم يفهم شيء وبقي في حيرة من أمره، فانقسم العملاء ثلاثة دخلوا معها البيت، والرابع راح يزج به في سيارتهم الخاصة بعدما قيده من يديه، كل هذا حدث في ظرف وجيز

وعندما دخلوا البيت طلب رئيس الفرقة منها أن تخرج كل ما عندها من أغراض، ثم طلب منها مكان الابن الذي اختطفته، فزاد خوفها فجأة وراحت تكذب:

– لا أدري أتركوني أنا بريئة

– أسرعي أخرجي ما عندك.. نعرف أنك كنت في المقبرة

أخرجت ذلك حين أدركت أنها كشفت، وراحت تبرر:

– حضرة الشرطي اعذرني أنا مدمنة، لا أعرف شيء

وها هو يطلب من زملائه تفتيش المنزل، وبعد أن ذهب أحد العملاء يمشي في رواق البيت ويفتش.. وإذا به يفتح آخر الغرف التي كانت موضوعة في نهايته، فوجد المختطف نائم على السرير، عليه فراش دافئ، سالما معافى لا خدش فيه، فيعلمه بذلك ثم يتوقف التفتيش ويذهب الجميع ليراه، وإذا بالرئيس يحمله دون أن يشعر، لكن شعر بذلك وهو يضعه في سيارة الأجرة.. فاستيقظ وبدأ ينظر فلم يفهم شيء:

– أين أنا؟

– بني لا تقلق أنت في السيارة سآخذك لأبويك

الشاهد أنه في الطريق حاول طمأنته، لكن دون جدوى، لأن الطفل قد يئس، ولم يعد يثق بأحد وبمن حوله، ولا يعرف ما يفعل خاصة عندما رآه دون لباس رسمي خاص بالشرطة، فما كان عليه سوى أن بقي صامت يسمع ولا يرد الا ببرودة أعصاب وخوف عميق. الزملاء الآخرين كانوا من ورائه ذاهبون معه الى مخفر الشرطة وها هي الخاطفة تبكي وتندم قبل أن تصل، أما السائق فقد ظل يبرر ويقول: أنا بريء لا علاقة لي بالأمر اسألوها لقد زعمت أنه ابن صديقتها

اشتياق رغم اللقاء

بعد أن أمسكوا عملاء الشرطة بالمرأة الخاطفة والسائق، كانوا قد أعلموا الضابط وجهاز الأمن عبر الهاتف أن المهمة انتهت بنجاح، كان ذلك قبل وصولهم. في حين اتصل المحقق مباشرة بسليم الذي رجع الى البيت بعدما كان مع صديقه علي يبحثان في شوارع أمستردام، فقال له أن ابنه عثر عليه وهو في أيدي آمنة، ويجب أن تأتي على جناح السرعة للقائه، ففرح جدا عند سماع الخبر وقد أعلم وليد وأبوه أولا اللذان كانا معه في البيت، ثم أعلم البقية وطلب منهم الصبر، الى أن يغادر ويأتي به، في ذلك الوقت كان قد ذهبا معه وهما سعيدان بسماع الخبر أيضا، وها هو يسرع بالسيارة ويتمنى الوصول اليه في أقرب وقت، لأنه اشتاق له كثيرا وهو يريد احتضانه والنظر في عينيه، والابتسام في وجهه وأن يطمئنه ويزرع الأمن في قلبه، ويشمه بعمق، لقد كان يشعر به مع كل دقائق تمر من لحظة سماع الخبر، الحصول أن عملاء الشرطة وصلوا أولا الى المخفر على الساعة الثامنة والنصف مساء.. فأدخلوا السائق والخاطفة السجن الانفرادي وفصلوا بينهما، وأجلسوا مجيد عند المحقق يسأله ويطمئنه بقدوم أباه، وأنه في الطريق آت. وبعد مرور عشرون دقيقة جاء سليم ووليد وأبوهما الى مركز الأمن، وحالهم بأحسن حال، فدخلوا وراحوا يطلبون حاجتهم من

عون الاستقبال فأخذهم الى غرفة التحقيق، وقبل أن يصلوا اليه رآه الوالد جالس في المقعد بجانب المكتب فابتسم:

– مجيد ابني..

– ينظر فجأة فيبادله الشعور، أبي.. اشتقت إليك

– وهو يحتضنه بقوة ثم يشمه لحظات، كلي اشتياق وأنا معك، أنت بخير..؟

– نعم أبي، لم تؤذيني لكن أبعدتني عنك.

يضمه ثم يقبله:

– بني العزيز حفظك الله ورعاك

– شكرا جزيلا جدي

وليد كان واقف ينظر اليه والى سوائل المشاعر التي كانت تتدفق هناك في غرفة المحقق ويبتسم من حين لآخر وإذا به يعانقه:

– مرحبا مجيد سررت بلقائك، لقد كبرت

– عمي.. أنا سعيد بوجودكم

سليم وهو يقلب ابنه بعينين فرحتين:

– كيف مرت أيامك ابني...؟

– عادية. أبي عندما أركبتني معها في السيارة بدأت تحكي لي حكاية مسلية لكن غلبني النعاس فنمت.. وقتها نسيت ما حدث، لقد

كانت لطيفة معي كثيرا يا أبي! صدقتها، وفرت لي الأكل والشرب، الملابس، وجعلتني أخرج معها أتنزه وأدور في أماكن عدة..

استغرب الجميع من جوابه:

- هذا جيد، إذا كانت مكرمة معك
- وليد وهو يتساءل، لما أبعدتك عنا إذن؟
- يجيب عمه، لا أعرف لقد كان تقص علي القصص حتى أنام وتلعب معي وتحتضنني كثيرا لقد أحسست أنها تعيش وحدها في البيت وعندما سألتها قالت لي أنا مطلقة بسبب ظرف حصل لي!

المحقق كان قد سمع كل شيء وقتها وها هو ذا يسأله:

- لم تقل لك الظرف؟
- لا صمتت
- جده يضيف، المرأة تبدو طيبة في معاملتها!

يردف:

- في الأول لم أكن أعرف شيء، كانت كل يوم تقول لي –سوف نذهب الى والديك هما في عمل طارئ يحتاج منك أن تصبر بني–
- يظهر شيئا مجيبا أباه، كل الطيبة التي كانت تملكها جعلتها تمثل كأنها في مسرح!

- يكتب من حين لآخر، ما فعلته كان لصالحها، تثير اهتمامه كي يقع في عاطفتها وتأثيرها الأنثوي

كان قد تذكر شيئا مما فعلته فنظر في والده:

- أبي وفرت لي كل شيء، قالت لي قل ما تحتاج وأنا سآتيك به، أكل شرب كتب ألعاب، وأخذتني مرة الى حديقة الألعاب ولعبنا وقالت لي تظاهر معي وكأنني أمك فبقيت حائرا مما تفعله من أجلي أبي
- أعجبت بك، الله المستعان
- إنها تفتقر شيء ربما الأهل!
- الطلاق لا يحدث إلا بأسباب، وكل الأسباب توحي بأنها امرأة استغلالية، أرى أنها استغلت براءته بقول كهذا، وربما طلقها الرجل لأجل ما هي مدمنة عليه!

سليم بتدبر:

- لا نعرف حقيقتها لكنها أخطأت طبعا
- المحقق يحوصل كل ما قيل، كل ما يهم الآن على أي أساس اختطفته!

ثم أكمل يقول لهم أن التحقيق سيكشف هذا.. حينئذ راحوا يودعونه، وبعدها الى الضابط الذي شعر بالسعادة حينما رجع الطفل، ثم غادروا المكان الى المنزل مباشرة، كان أهل مجيد ينتظره بحنين وفراغ كبير دام ٥ أيام لكن سليم أنقض الموقف وجاء مسرعا على الساعة التاسعة والنصف،

وقبل أن يصل كان قد أوصل أباه وأخاه الى المحطة حتى يرجعا الى روتردام، وما فعله كان لعمل الوالد وارتياح الولد، وتأخر الوقت، المهم أن مجيد كان قد اشتاق لأمه كثيرا كما قد اشتاقت له أيضا، وها هما يلتقيان على الباب حين وصلا منذ قليل، فأمسكت به وحملته وظلت تحتضنه حتى تعوض أيام الفقد التي كانت أيام جنازة وفراغ:

– ابني، فلذة كبدي أنت بخير؟

– بخير أمي اشتقت لك

وهي تلحق متلهفة لرؤيته:

– بني العزيز الحمد لله على سلامتك

– مرحبا جدتي الحمد لله بخير

جدة هيلينا كانت لا تقوى على المشي، فراح الجميع يدخل ويذهب اليها:

– مرحبا مجيد، عودتك محمودة حفظك الله ورعاك

– وهو مسرور، ان شاء الله شكرا جزيلا

يدها على يده وتنظر في جسمه:

– لا تعاني من شيء صح؟

– لا شيء كانت لطيفة معي أمي

– وهو يوضح لزوجته، المرأة لم يكن قصدها أذيته رغم ما فعلته، المهم كانت تعامله كأم

وهي تنظر في وجهه متأملة:

– ما زالت في الشرطة؟

– نعم لم يحققوا معها بعد

– والدة سليم متعجبة، ما السبب الذي جعلها تقدم على فعل هذا!

– السبب لا يبرر الاختطاف يا أمي، القانون سيأخذ مجراه..

كان قد وضح لهم ما استطاع توضيحه.. ثم ذهبوا الى مائدة الإفطار يتعشون بعد أن عادت المياه الى مجاريها..

التحقيق مع الخاطفة

عند طلوع الشمس وتحرك الهواء وبروز النهار، عادت الحياة كما كانت من قبل بالنسبة لمجيد، أما والديه فقد تأقلما مع الأوضاع منذ أن عاشا مواقف وتجارب حياتية صعبة ومؤلمة، فأصبحا صابرين ورزينين، لا يقلقان ولا يتحدثان إلا قليلا، خاصة سليم في الأواني الأخيرة تعلم أشياء عدة: من بينها الثقة في محلها وعند الحاجة، تحديد الوجهة والتركيز فيها، الحذر من الأشياء الملفتة لأنها قد تكون فتنة، وكل ما حدث كان محض حكمة تعلم منها ما تعلم وصبر فيها واحتسب. مجيد عاد الى دراسته في الوقت الذي طلعت فيه الشمس وصارت فيه الساعة الثامنة صباحا، كان المدير قد علم بعودته، ففرح واطمأن برجوعه، ومعلمه كذلك، أما أصدقائه سعدوا وارتاحوا من شبح الخاطفة، بعد أن علموا أن الشرطة ألقت القبض عليها، لأنهم كانوا خائفين قبل أن تقبض عليها، فهذه طبيعة الأولاد، الخوف متجذر في دواخلهم، وينمو إذا لم يؤمنوا أن الله هو الحافظ والقاهر، القوي واللطيف، لأنه أضعف العدو وأمن على الضعيف، فالحياة تبنى على قواعد وأسس وإيمان، حتى لا تغيب الحالة النفسية وتضعف القدرة الفعلية، فدون قواعد لا همة، ودون إيمان لا يقين، هذه نقاط ينبغي علينا أن نأخذ بها ولا نيأس عند العثرات. المهم أن سليم بعدما أوصل ابنه المدرسة راح الى المطعم حيث عمله، كان قد تأخر قليلا في الوقت الرسمي

الذي يبدأ فيه العمل، لكن الحاضرين تقبلوا الحالة وسعدوا عندما سمعوا خبر رجوع ابنه سالما الى أهله، علي وهو مسرورا أخرج له عطرا آخر وقال له أعطه لابنك وقل له –علي يقول لك حافظ على رائحتك–

المفيد أن العمل دام حتى الواحدة مساء، لكن قبلها في الصباح على العاشرة صباحا جرى تحقيقا معمقا دار بين المحقق والخاطفة، لكي يأخذ أقوالها وتقوم المحكمة القضائية بالفصل في قضيتها الإجرامية الجنائية، وللعلم أن السائق كان قد أخذ أقواله، وقال أنه لم يشارك معها في الجريمة ولا يعلم شيء مما حصل، سواء في قضية الاختطاف أو تعاطي الحبوب، وكان يتعامل معها من باب أخذ ورد فقط، الشاهد أنه كان لا يعلم أنها خطفته، لأن المجرمة راحت تخفي آثار الجريمة بحكاية حكتها لمجيد وهو يسوق في سيارته. وعندما جاء الدور عليها كان المحقق صارم معها ولم يعطي لها فرصة للكذب، أو اللف والدوران، رغم بكائها وندمها على ما فعلت، فهو كان لا ينظر الى عاطفتها أو سلوكها بقدر ما كان يبث أسئلة مراوغة تفتح باب الإجابة لها:

الحاصل أنه خلال سؤالها طلب الضابط منه أن يقدمها الى القاضي مباشرة بعد التحقيق الكامل معها، وها هو ذا يدون ويلقي الأسئلة الأساسية:

– السائق اعترف وقال إنه لا يدري شيء مما حصل، ما تقولين في هذا؟

– وهي تبكي، نعم لا دخل له، كان يعاملني كزبونة لا غير، وأنا لم أقصد فعل شيء للولد حضرة المحقق

يسألها من جديد:

– الحبوب التي وجدوها عندك لمن؟

– هي ملك لي، أنا مستهلكة اعذرني حاولت ولم أستطع الإقلاع

– لماذا قمت بإخفائه عن والديه، هذا ليس من حقك إطلاقا فقد حرمته من حريته وأهله

تراوغ وتحاول إنقاذ نفسها:

– لقد وجدته في المقبرة وحده فخفت عليه، لم أقم بأذيته وأنا كنت قاصدة الاهتمام به ورعايته الى حين..

– كنت متعاطية في ذلك الوقت؟

– تجيب بارتباك، لا حضرة المحقق

– المحقق علم أنها تكذب فصرخ في وجهها، لا تكذبي، فمن المؤكد أنك ذهبت للمقبرة لأجل التعاطي

خافت فلم تتمالك نفسها:

– اعذرني حضرة المحقق أنا مدمنة

– ما السبب الذي أدى بك الى اختطافه؟

– تتذكر ماضيها فتتأثر ثم تجهش بالبكاء، أنا مطلقة وعقيمة ورغبتي في الطفل شديدة

أكمل التحقيق بصرامة ودون ادخال القلب:

– هذا ليس سببا مقنعا كان عليك التكفل بيتيم، أفضل للجميع، وتقلعي من إدمانك الذي جعل رغبتك تكثر أكثر فأكثر

– تعترف والدموع على وجهها، معك حق لقد أذنبت

– المروج تعرفينه؟

– تصارحه، لا أعرفه

وعندما أكمل معها بقية التحقيق، كان عون الشرطة واقف قدام باب الغرفة، فطلب منه إخراجها وأخذها الى المخبر، لإجراء التحاليل.. لأجل إثبات صحة أقوالها، من ثم إحالتها الى القاضي لينظر في الأمر ويفصل في العقوبة، التي تحتمل أن يخفف عليها كونها امرأة لم تؤذي الطفل وأنها عقيمة –رغبتها قوية–

وتأتي بعدها محاسبة السائق بجريمة المشاركة، والتواطؤ معها في شراء المؤثرات العقلية، وحملها في السيارة والتستر عليها، لأن كل هذا أثبتته هي بمعاملته معها، العديد من المرات وتكرار الأمر

كيمياء حب المادة

في نفس اليوم كان عمل الشرطة خطط وتحقيقات ثم الفصل، لم تكن تتحرك حتى تمسك بدليل أو خيط رفيع خشين، الحيل التي كانت تستعملها كانت صعبة على الجاهلين أو الفاسدين في التحايل عليها، لقد كانوا يتوهمون أنهم واعون، ويحفظون لسانهم بحرف الميم، وهذا ليس صحيحا، فالسلطة كانت تلعب دور كبير في المراقبة من بعيد، والتحقق من قريب، إذ كان يميزها صبرها وعزمها على المشتبه به أو المتهم، إن حياة الشرطة والمجرم أشبه بقطعة النرد، يرميها المجرم على اللوحة ثم تأخذ كل ما وضع في الخانات، حتى وإن فاز في الأول سيسقط في الأخير ويعود، لأن الطمع سم خفي يمشي في العروق مجرى الدم، وهذا يذكرنا بالمدمنين وبالمروج الذي فعل العديد من الصفقات وفي كل صفقة يزيد في الكمية لأجل كسب المال، ولكن هذا لا يبشر بالخير لأن السلوك لا يبقى على حاله، بل يتغير وإن كان المجرم ذكي أو حذر، الحياة ستعصف بالجميع نظرنا في الواقع ووجدنا مؤثرات عدة، مواد، متع، ملذات، رغائب. ولا ينجح الحال حتى يرجع المجرم الى الحق ويندم على خطيئته وفي مثل هذا النجاح سوف تتحقق الغنيمة الباردة التي تعطى لمن له قلب، وآمن أن هناك رب، لكن للأسف القليل من يدرك الخطأ ويصلحه، وهناك من يدركه ولا يصلحه، وهناك من يتهاون في إصلاحه، وهناك من يتعمد ويكثر

فساده، وهذا لا يقوم به إلا الكافر مثل (ديغا) الذي لديه قلب فاجر، وجسد نتن، وهنا نتعجب من أولئك الذين يحبونه ويجلسون معه، ويأخذون منه كما تأخذ الشاة الحليب من أمها، ولا شك السبب الرئيسي الذي جعلهم يحبونه هو الحاجة اليه، فهم يرونه تأثير كيميائي وحب دموي، ومفعول قوي، وما إن غابت المادة غابوا عنه، وراحوا يبحثون عن حبيب آخر وكأنهم كلاب شوارع والله المستعان.

المعلوم أن الشرطة لم يتوقف عملها عند الخاطفة، فهي بعد أن قبضت عليها، غيرت الوجهة الى المروج، الذي تركوه مراقب من طرف العميل، وجديد المعلومات عندهم بناء عن الترصد والاستطلاعات والتحقيقات أنهم علموا أنه مازال يجلب المادة، وهذا لم يدركه العميل حتى لاحظ أنه يغيب عنه أحيانا بسبب أحد المعيقات، وكان دليل ذلك الحبوب التي وجدوها عند المرأة المدمنة، كما كان لديهم علم من قبل أنه يبيع في الخفاء لأناس آخرين بحذر، وأن هناك عجوز يدخل إليها من حين لآخر جارته في السكن، لكن لم يدركوا أنها مشاركة معه في جلب المواد المؤثرة، لأنها امرأة تدعمه بوصفات طبية مكتوبة باسمها يأخذ بها الحبوب بشكل قانوني! ودون أن يشعر أحد بما في الستار، كما لديه أيضا دعم من طرف الطبيب الذي يتعامل معه كمروج خاص، وأنه يزور له وصفات أخرى باسمه على أساس أنه مريض مرض في العظام، وله الحق في أخذ الدواء، وما يفعله من

وثائق حتى يحمي نفسه ويتستر بالقانون، الذي لا يمشي على هذه الطريقة، فهذا انتهاك له وخيانة، سواء من طرف المروج أو الطبيب، أما المرأة كبيرة السن تبقى جاهلة يتم استغلالها.. عاطفية وتحبه حب ولد لامه بعلم أنه كان يعرف كيف تأكل الكتف، وبفعل مواقف إنسانية تظهر في الظاهر عمل إنساني قيم لكن لو تعمقت أكثر لوجدته يحفر بهدف الوصول الى قلبك وفعل ما يريده بك، وهذا هو شيطان الحبة وتفاعلها مع العقل، لأن الإنسان الذي يصل به الحال الى ترويج ممنوعات والسيطرة على القلوب والعقول يفعل أي شيء يخطر على البال، الشاهد أن الشرطة شددت أكثر في مراقبته بعد القبض على الخاطفة، وبدأت تعمل بحزم وإصرار على الإطاحة به، بدعم وإعطاء العميل سيارة خاصة تساعده بمجرد الغياب عنه، ولقد وصل الحال الى توفير عميل آخر حتى يتناوبون ويساعدون بعض، أحد في الصباح وآخر في الليل، من أجل جمع معلومات أكثر وتحركات قد لا ترى إلا في الليل أو منتصف النهار، وهذه هي حقيقة الأمر، المروجين لا يتحركون أكثر إلا في هذه الأوقات، تجنبا الاصطدام مع الشرطة ومختلف المعيقات، إنهم كالخفافيش في الليل وكالقطط في منتصف النهار. على أي حال فعندما أكمل بيع بقية الحبوب مع الخاطفة في ذلك الوقت، ومع بعض المدمنين الآخرين، كان قد توقف عن البيع مدة أسبوع، لكن لم يتوقف عن التعاطي فقد وصل به الحال الى ضرب

ثلاث وأربع حبات من البريجابالين في اليوم، كان يذهب للجارة ويقوم بأكلها هناك دون أن يشعر أحد بذلك، وهما كانوا يلاحظون ذلك إذ يظهر لهما أنه يحتاج أغراض أو أشياء أخرى، يعني يوهمهما من حين لآخر بإخراج أشياء منزلية كالفراش أو أدوات الإصلاح أو تنظيف المنزل، وقد ألحقه الحال الى البحث عن جرعة أقوى وهذا وجده في استهلاك مادة الشوشنة، التي كانت صعبة الوصول، وصعب عليه جلبها والشرطة تترصده وتتابع تحركاته، لكن الطمع وتطور الإدمان يعمي العقل ويطمس بصيرة المرء، ويجعله مجنون تقريبا إذا لم تغلب نفسه هواها، وتدرك الطريق الصح، ففي نهاية الأسبوع قرر الذهاب الى ماستريخت للإتيان بها واستهلاكها لا بيعها، حتى لا يشعر أحد بذلك، وكي تبقى له مدة وهو يتناول فيها، ولا يغامر كثيرا للتقليل من حظوظ الإطاحة! على كل حال فخطته كانت على الأغلب محكمة، فقد اختار أن يروح في القطار في وقت متأخر من الليل، فعند الساعة التاسعة نزع لباسه الأحمر، ولبس لباسا أنيقا أسودا، وقبعة زرقاء، كان لا يضعها الا عند السفر أو مراسيم مهمة، وخرج متخفيا كأنه في حرب مع بلد قاسي القلب، وراح يمشي في الأزقة الضيقة ويلتفت من حين لآخر وينظر ما إن كان يتبعه أحد، الشوارع كانت مليئة ومكتظة بالناس، الإبرة اذا سقطت لا ترى في ذلك الليل رغم وجود الضوء، الضجيج يعم المكان، البحث والإتباع كان يصعب في

ذلك الوقت، المهم أنه وصل الى المحطة وركب فيها.. وكان قد لا يزال يترصد ما إن كان مراقب، لم يكن خائف بقدر ما كان متلهف ومشتاق الى المادة، والى الابتكار الذي كان يفعله وهو في الوادي أو في المنزل، بمزج مختلف المواد مع بعضها البعض، والخروج بمادة قوية شديدة التأثير، لقد كانت عادة يمارسها في أغلب أيامه ومتعة تثير قلبه، وتتحكم في نفسه ووجدانه، وتدخله في عالم الغفلة، إدمان كان يصاحبه إدمان، وجرعة تنادي أخرى، وذهاب عقل في الأخير، مدة ليست بالطويلة ثم يعود ضعيف الهمة في كل مرة، ولا يدرك أن إدمانه يتطور بسرعة ويقوده الى الهلاك، هذه الجزيئات الصغيرة كان يتذكرها ويتخيلها حتى عمل عقله على توفيرها رغم الصعوبات والمخاطر، فهو عندما وصل الى ماستريخت بعد اجتياز مسافة ١٧٠كم، نزل من القطار وذهب الى نقطة البيع التي كان يذهب اليها في أحد أزقة شارع ....ز، الحياة فيها كانت تتشابه مع ما يوجد في مدينة أمستردام، المدمنون كثر وكذلك بائعو المؤثرات العقلية، المشاكل عديدة، لا ترى سليمي القلب إلا قليلا، لقد كانت الشوارع متسخة لكثرتهم، أما أصحاب المبادئ والأخلاق كانوا يركزون في أعمالهم ويوفرون مالا حلالا، يجتنبونهم لأنهم كانوا فاسدي الطباع ولا يمكن التأثير عليهم، إلا بقدرة الله وحكمته البالغة، وهو كان من نفس سلالتهم عندما التقى بهم، وهم كانوا يعرفونه ويعرفهم، وبينهم عمل فقط، لا أصدقاء ولا

أصحاب، الذي يربطهم مادة وفقط، فاشترى الشوشنة في ذلك الوقت من أحد مروجي تلك المنطقة، وعاد الى مقره في غضون ساعتين.. كانت عبارة عن مادة صلبة بنية مغلفة بكيس أسود، ولقد اشتراها بثمن غال، حيث أن الكمية التي جلبها معه تكفي لمدة شهر، وما غامر من أجله كان بسبب إدمانه، واحتمالية بيعها لبعض المدمنين الآخرين الذين كان يتقاسم معهم ذلك السم عبر الدم! لم يكن بطبعه أنانيا مع هؤلاء الأشخاص بالذات، لأنهم كانوا يوفرون له مالا زائدا عن المطلوب، كل هذا حتى يعيشون معه نشوة المادة بدمه المخدر، ورغم نقص المفعول وقلة الكمية التي كانت تصلهم عبر الدم، إلا أن عقلهم كان يوهمهم أنهم تذوقوا جرعة قوية، مما يؤدي بهم الى الشعور بالاطمئنان النفسي الزائف. الذي حصل وقتها أن الشاب الذي دخل للتو عبر باب منزله، كان قد دخل كما خرج من قبل، متسترا ومتخفيا عن عميل الشرطة، الساعة التي رجع فيها كانت تشير الى الواحدة والنصف صباحا، إذ لم ينتبه له أبدا في ذلك الوقت على الرغم من قربه للمنزل وتخفيه بين السيارات التي كانت مركونة هناك في المنطقة، ولا شك أن ما أبعده عن الصورة، الظلام الدامس وسكون الليل، فعندئذ أخفى السلعة التي جاء بها في مكان ضيق، في الحمام، وأبقى جرعته التي صبر عليها مدة أسبوع، فوق الطاولة، وراح يأتي بحقنة وكحول من الثلاجة، وملعقة من المطبخ وخيط بلاستيكي من تحت سريره،

ومواد أخرى أعطاها له مروج ماستريخت، أخرجها من فخذه مع شفرة حادة يحطم بها الحبوب والمادة الخطيرة التشوشنة، فتفقد المكان جيدا ونظر من نافذته.. وعندما أدرك أنه وحده في الساحة، نزع العجار عن وجهه وجلس على سريره، وأمسك شيفرته الحادة وبدأ برحي المواد، وقام بخلطها مع الهيروين، ثم جعلها سائلة في النهاية بإضافة كمية الكحول المناسبة، وملأ الحقنة.. ثم ربط يده بالخيط على مفصله الأيسر، وضرب بقوة وريد يده، وركع برأسه باتجاه الأرض، وراح يتعبد خاشعا في تأثيراتها..!

حقيبة السعادة

وفي الصباح نهض على صوت دقات في باب منزله، في ذلك الحين كانت مواد التحضير مازالت على الطاولة، فهو عندما غادر بعقله سمح في كل شيء، ولم يكن يتوقع أشياء كان يتوقعها وهو في عقله، فأسرع يخفيها ثم ذهب يرتدي قميصه وحذاءه، كي يفتح للقاصد.. وإذا به يجده أحد المدمنين، كان يعرفه، في نحو السابع والعشرون من عمره، نحيف البدن، شعره أصفر، وعينيه خضراوين، بشرته سمراء وتظهر عليه ملامح الإدمان:

– مرحبا ديغا

– مرحبا

– اعذرني لقد اتصلت بك كثيرا.. وجئت الى الوادي ولم أجدك

– وهو في لحظات استيقاظه، أدخل

تفقد الخارج قليلا ثم أغلق الباب وكلم الزبون:

– توقفت عن البيع أنا مراقب لم أشأ التحرك كثيرا في الساحة

– من، الشرطة؟

– نعم لقد جرت حادثة اختطاف في نقطة البيع وكدت أروح فيها لكن اجتزت الوضع

– المدمن يستنجد، ديغا أن بحاجة الى المادة

– يكتم الحقيقة، لا أملك الآن المرة القادمة

– وهو يترجاه، أرجوك أريد جرعة ولو قليلة، أنا بحاجة إليها صار لي أكثر من أسبوع لم أستعملها، سأعطيك الكثير من المال

كانوا يعلمون الكود في المعاملة، وما إن كانت المادة متوفرة أم لا، لهذا ترجاه المدمن وقد علم ذلك من تصرفات ديغا الهادئة، فحقا لو كان المرء بحاجة الى ما يريده لكان قلقا أو شارد التفكير فيه، أو منزعجا، وهو كان عكس ذلك، فحن عليه حنان قاسي:

– لقد جئت بيتي وتعلم أنني لا أحب من يأتي اليه

– اتصلت بهاتفك كثيرا لكن اعذرني!

– انتظر في تلك الغرفة –أشار بإصبعه–

جلس المدمن على السرير، وذهب يحضر له جرعة من الشوشنة حتى يتخلص منه ولا يفضحه، وبعد عدة دقائق حقن نفسه بجرعة في جسمه، ثم نزع حقنة من الدم وراح يعطيها للزائر، فربط المدمن يده وحقن هو أيضا نفسه، فاستقر في الحين، وشعر بالاسترخاء وكأنك مرهق كثيرا، ثم نمت دون أن تشعر، إن الحالة أشبه من أن توصف هكذا، لكن العلم قال: إن أول شعور يجتاح المدمن عند استقبال المادة، هو الشعور بدفعة حرارة في مكان الاختراق، ثم دوخة خفيفة مفاجئة، ثم الدخول في شعور الانفصال عن الجسد، وآخر شعور نغزة في القلب أو بطء في التنفس. وعندما دخلا عالم الكوابيس والتخيلات، حذره من أن يتهور ويقوم بشيء

يجعل العميل يشعر بتعاطيه، وأن يغادر على الفور ويحاول التخلص منه ما إن تبعه، فسمع كلامه وأعط له الكثير من المال، ثم شكره وخرج من بيته راجعا الى بيته، ذابل العينين وثقيل الرأس، لكن في ذلك الوقت كان قد رآه عندما دخل وبعدما خرج، في وقت دام عشرون دقيقة، حينئذ لحقه على قدميه وظل يراقبه دون أن يشعر المدمن، الى أن كاد يصل بيته في شارع ....ر لكن العميل استغل الفرصة وقام بالقبض عليه بلف ذراعه ووضعها خلف ظهره، كان ذلك في مكان ضيق على الرصيف، فصرخ فجأة:

– دعني.. دعني من أنت!

– أصمت وأخرج ما عندك

– لا أملك شيء من أنت؟

– شرطة هيا أسرع

– ارتعد المدمن في مكانه مع العلم أنه لم يكن يحمل شيء معه، الا مالا وولاعة وسجائرا، لا أحمل شيء حضرة الشرطي أنظر..

فتشه جيدا ثم سأله:

– ماذا كنت تفعل عند ديغا؟

– لا شيء لقد زرته

– أنت منتشي؟

أمسك نفسه المدمن وحاول إخفاء مفعول المادة لكن لم يستطع، لأنها أغرقته في عالمها ولم يرد عليه إلا بكلمات جافة:

– لا أنا بأحسن حال

– نعم يظهر عليك تعال معي سنرى..

وهما في طريق العودة أخبر العميل جهاز الأمن بما فيهم الضابط، بأنه أمسك بمتعاط كان عند المروج، وقد ابتعد عن الهدف مسافة خمس دقائق سير، فطلب منه أن يأتي به على السريع، وعندما وصلا الى السيارة الخاصة بالشرطة، أركبه مكبلا يديه وراح يأخذه الى المخفر، لم يكن يبعد كثيرا عن مقره إلا مسافة ربع ساعة. في ذلك الوقت استحم المروج وغير ملابسه وأخفى جميع الأغراض وخرج من بيته الى بيت الجارة منتشيا، لم يكن يظهر ذلك على وجهه لأنه ألقى الماء على جسده، ووضع رائحته المعتاد عليها، مما جعله يبدو نظيف، وكباقي المسافرين، فعندما دخل عليها كانت ابنتها على وشك الذهاب الى عملها:

– مرحبا ديغا

– مرحبا

العجوز كانت في المطبخ تتناول فطورها، والفتاة قد أكملته للتو وقامت من المائدة..

– أهلا كيف أصبحت

– بحال جيد

– الفتاة تشاهده، أنت أنيق اليوم الى أين..؟

– لدي صفقة سريعة سأذهب لتحقيقها

– وهي تعلم ما يريد، نذهب الآن..؟

لارا كانت تعامل ديغا كأخ لها لأنها كانت حاضرة في المواقف التي كان يساعد فيها أمها، وحتى هي كانت تعلم أنه مدمن ومروج ولديه علاقة وطيدة معها، بحيث تتعامل وتكسب معه المال، وقد كانت هي أيضا تتناول البريجابالين منذ سنوات ماضية.. وجرت الأحوال وسيطرت العادة فأصبحوا يرون أن كل شخص حر في نفسه، ويفعل ما يريده، لا قانون أو شريعة تمنعهم عن فعل هذا! المهم أنها غادرت الى عملها في السوبرماركت بينما انتظر العجوز حتى تتهيأ وتذهب معه الى الطبيب، من أجل جلب الوصفات الطبية وإخراج الدواء من الصيدليات التي كان يتعامل معهم فيها، حتى يرجع الى ماستريخت.. المكان الذي جلب منه مادة الشوشنة، لأنه في ذلك الوقت كان قد دردش مع مروجها، وتفاهما على السلعة والكمية، وكانت تظهر صفقة مربحة لكلا الطرفين، خاصة وقد أصبح مراقب ولا يستطيع البيع كما كان بتلك الطريقة، فوجد هذه الفرصة جيدة له وتتم بسرعة، مع مغامرة تحتاج جرأة إن صح التعبير، الشاهد أنه عندما بدأ في تحقيق مطلبه، اكتشفت الشرطة أن المدمن قد تم حقن نفسه

بدم ديغا المخدر وجعلوه يعترف بنفسه، لأنهم كانوا منزعجين من تحركاته التي كانت تتم بحذر على الغالب، ودون دليل قوي يجعلهم يقبضون عليه، لقد كان هدفهم القبض عليه مع معرفة مصدر المؤثرات العقلية، فعندما تأكدوا أنه يملك مادة الشوشنة واعترف لهم المدمن، طلبوا منه أن يرجع إليه ويعرف مكانها حتى يتم القبض عليه متلبسا، فلم يجد حل سوى أن يوافق، فأطلقوا سراحه وظلوا يراقبونه هو أيضا. وفي ذلك الحين ذهب الى منزله مبعثرا، يفكر وخائف مما طلبته الشرطة منه، ويحاول إيجاد طريقة ينقذ نفسه بها، بعدها العميل رجع الى مكانه. وعلى الساعة العاشرة صباحا كان ديغا قد غادر بيت جارته وهي برفقته الى الطبيب، وذلك بأخذ سيارة أجرة كالعادة وملاحظة ما إن كانا مراقبين أم لا، ولحسن الحظ أنهما في تلك الدقائق كان العميل قد أمسك بالمدمن في شارع ....ر وذهب به الى المخفر، وبعد أن وصلا الى عيادة الطبيب الخاصة راح يدخل العجوز اليه، ولقد كان غالبا ما يأخذ التشخيص دون أن ينتظر الدور، لأن المعاملة كانت بين هؤلاء الثلاثة سريعة ومقدمة على المواطنين، بحيث لا يشعر أحد بما يحدث، عندئذ رحبا بهما وقد وجدا عنده مريض يقوم بمعالجته مستلق على السرير:

– مرحبا بكما، دقيقة

– لا بأس

– مرحبا دكتور

أكمل سريعا الطبيب وأخرج المريض بعد إعطاء له الوصفة، ثم راح يركز معه:

– ماذا تريد اليوم؟

– أريد ١٠ وصفات بريجابالين وترامادول

– انتظر دقائق، اجلسا

حينئذ راح يحكي معها ويسألها عن حالها، أما المروج ظل صامت يفكر في الطريق الذي سيسلكه الى ماستريخت، كخطة استباقية لإيصال السلعة المطلوبة، وحتى لا يصطدم مع الشرطة، كانت مغامراته دائما تحتاج تفكير وخطط محكمة وحبيتين أو ثلاث من المؤثرات العقلية، كي ينجز الصفقة وينتهي منها حرا طليقا كأن شيء لم يحدث، المهم أن الطبيب قد أكمل مزورا له الوصفات الطبية، باسم العجوز وباسمه ثم أعطى له ثمن الأوراق وخرجا راجعين من حيث أتيا، فوقفا في الرصيف أمام الطريق العام، هنيهة، حتى جاءت سيارة أجرة.. فأركبها وأخذ هو طريق آخر ماشيا على قدميه بين أزقة وشوارع أمستردام، متجها الى نقاط البيع التي كان يتعامل معهم فيها، فبعد دقائق وصل الى أول الصيدليات، فاشترى الأدوية الموجودة في الوصفات الأولى، ثم خرج مسرعا وفي حوزته كيس مليء بالمواد المؤثرة، وقبل أن يصل الى

الصيدلية الثانية، دخل أحد المحلات واشترى قارورة ماء صغيرة، ثم جلس في مكان منعزلا عن الناس وأخرج حبتين من البريجابالين وأكلهما على دفعة واحدة.. وصب جميع الماء على رأسه، لم يصبر على الدواء عندما رآه جديدا وباللون الأحمر والأبيض، خاصة ومفعول التخدير الأول بدأ يزول.. إن هذا الشاب كانت حياته مختلفة ودمه مخدر على الغالب، ففي حقيقة الأمر عندما تتوفر المادة يرتفع حظ الاستعمال وجرعة التخدير، الحاصل أن ديغا تفقد صيدليتين أخيرتين، وأكمل شراء بقية المواد وأخفاها في حقيبة بيضاء، كان في داخلها فراش دافئ، وفي وسطه جميع الدواء، وبعدها أخذ طريق القطار وراح متجها لإنهاء الصفقة الى ماستريخت، لكن قبل أن يركب القطار كان قد دخل الى احد مطاعم أمستردام وتغدى، لكن سرعان ما أكمل ذلك عندما علم أن الوقت قد حان، فقام من مقعده وأعطى ثمن الوجبة للمدير، وخرج من هناك حاملا حقيبة السعادة، متجها الى المحطة، التي كانت مكتظة بالناس الغرباء، لا أحد يراقب أحد، إلا بعض السراق الذين يضعون السرقة كمهنة، المقاعد كانت ممتلئة، لا تكاد ترى فيها إبرة خيط، الأصوات مرتفعة والضجيج يعم المكان، لكن هذا لم يعيقه بالعكس فهو استغل وقت منتصف النهار لتحرك المسافرين فيه كثيرا، بحيث يتسنى له مراوغة الشرطة، والركوب في القطار الذي وصل للتو.. وقد

دخل بابه في الحال، وماهي إلا دقائق والناس تركب فيه، حتى أعلن صافرة الإنذار والمغادرة.. فأخذ كل واحد مقعده وقابل غيره، كان قد أخذ آخر المقاعد وقابل عجوزا لحيته بيضاء، طاعن في السن، يحمل كتاب ويقرأ، لا أحد ينظر لأحد، لأنهما كانا كل في عالمه الخاص

استسلام

في الوقت الذي ترك فيه ديغا العجوز راجعة الى البيت، كان العميل قد وصل الى بيته.. ومراقبته كما جرت الأحوال، لكن الرؤية التي غابت عنه، هي عندما خرج معها كما جرت العادة وذهبا الى الطبيب.. لأنه كان مشغول وقتها مع المدمن، الذي أمسك به وذهب به الى المخفر. المفيد أنه بعد مرور عشرة دقائق بالتقريب تصل السيارة، فتنزل منها، وها هي تمشي ببطئ الى أن دخلت بيتها.. حينئذ لاحظ وصولها ونظر في سيارة الأجرة فلم يجدها الا وحدها، فتعجب لأنه تذكر في الماضي أنه كان يراها مع ديغا، خارجة من بيتها، لكن عند العودة تأتي وحدها! فأخذ رقم السيارة هذه المرة، وراح يتبعه بعد أن شعر أن المروج قد خرج من بيته، وأن المكان هادئ لا حركة فيه، وعندما دخلا شارع .....س كان خلفه مسافة عشر أمتار، فزاد في السرعة حتى أصبح أمامه، ثم أشار إليه وقال له: توقف. فركنها جانب الرصيف وبقي في داخلها ولم ينزل، حتى جاءه بلباسه الأسود المنضبط، وتسريحة شعره الرسمية، وكان يظهر له وكأنه مدير مؤسسة عمومية، لكن صرح له العميل وقال له: أنه تابع لجهاز الأمن، ثم سأله عن العجوز وقال له: من أين جئت بها؟ فأجابه دون لف ودوران، لأنه كان بريئا، وزاد على إجابته بأن اعترف له، أنها كانت مع شاب كان على

وجهه عجار أكحل، أركبها في شارع .....ط، وبقي وحده حاملا أوراق لم ينتبه ما في داخلها، فاستغرب وأدرك أن هناك شيء يطبخ في الخفاء، فشكره بعد أن علم أنه كان صادقا معه، ورجع مسرعا الى مقر المروج.. وظل يفكر وينتظر ساعة، فلم يلاحظ شيء، فأخبر الضابط بما توصل اليه، فقال له –راقب المكان جيدا– وألا يغادره لأنه قرر النظر في الأمر، والقدوم الى نفس المكان، وبعد مرور عشرون دقيقة وعلى الساعة الثانية مساء يأتي ومعه ثلاثة من أعوان الشرطة.. كان قد ركن السائق السيارة بين بيت المروج والجارة مع العلم أن البيتين كانا لا يبعدان عن بعضهما البعض، الا اجتياز الطريق والرصيف فقط، فنزلوا وراح يدق على باب منزلها، فتأتي بعد هنيهة، تفتح، فتراه بلباسه الرسمي أمامها، ومعه أحد أعوانه، أما السائق بقي في السيارة، والآخر واقف أمامها، فخافت واضطربت في مكانها:

– مرحبا بك

– مرحبا بكم، ماذا تريدون؟

– لدينا مذكرة تفتيش نريد الدخول

رأت العجوز الوثيقة فلزمت الصمت، ثم ابتعدت عن الباب، فدخلا.. وطلب منه أن يفتش المكان جيدا، وبعدها بدأ يكلمها:

– أين تركت ديغا؟

– وهي مرتبكة، لا أدري لديه عمل فرجعت وحدي

– أين كنتما؟

– عند الطبيب

تعجب قليلا ثم سألها بهدوء:

– ما بك؟

– أنا مريضة أعاني من فقرات ظهري

مع سؤاله لها كان عون الشرطة قد وجد كيس معبأ بالأدوية، فأتى به وقدمه له.. ثم قام برؤيته، فوجد فيه دواء البريجابالين والترامادول وأدوية أخرى مختلفة:

– هذا دواؤك؟

– نعم أعطاه لي الطبيب

وهو ينظر في الدواء يجد وصفة طبية في وسط الكيس، كانت أسفله فقرأها فوجده مطابق لما في الوصفة:

– منذ متى وأنت تتناولين هذا الدواء؟

– منذ سنتين

قرأ اسم الطبيب أسفل الوصفة، ثم راح يسألها عن علاقتها بالمروج:

– جارك لما يأتي عندك؟

– تحاول حمايته، إنه يساعدنا من حين لآخر في أغراض المنزل، وبعض المستلزمات، لما تسأل؟

– هو من يشتري لك الدواء..؟

محاولة الاحتفاظ بالسر:

– مرات فقط

– وأين هي الوصفة الجديدة؟

– تنفلت فجأة، لقد أخذها معه سيأتي بالدواء..

عندئذ أدرك نصف الخطة، فأخذ اسم الطبيب وخرج من بيتها الى بيته مباشرة، فدخلوا يفتشون من جديد حين علم أنه يتم استغلالها وأن المنزل فارغ، حيث انقسم كل عون شرطة يبحث في غرفة، لكن بعد تفتيش دام سبع دقائق لم يجدوا شيء، فراح الضابط بعد ذلك يدخل الى الحمام ويفتش.. وها هو ذا يحمل علبة مربعة الشكل، لم تكن في مكانها المناسب، كان مكتوب عليها، كريم للشعر، ففتحها.. وإذا به يجد قطعة دائرية من التشوشنة، منزوع منها طرف صغير، فيمررها لأعوانه حتى يرونها.. وفي الأخير خرج الجميع من الدار، مغادرون المكان.. وقد تركوا العميل وحده في مكانه ينتظر قدومه، حتى يتم الإمساك به. المروج في ذلك الوقت كان قد أكمل مع مروج ماستريخت الصفقة وقدم له ١٢٠٠ كبسولة وقرص بمبلغ ٢٠٠٠ يورو حيث تمت بسرعة ودون أن يبقيا مع بعضهما البعض

دقائق، لأنهما كانا حذرين جدا، المهم أنه أوقف سيارة أجرة في ذلك الوقت، وركب وهو ممسك المال في قبضة يده، وقد كان يتحرك بسرعة وفي أماكن مكتظة بالناس، حتى لا يصطدم بالشرطة أو قطاع الطرق، أو سراق، وقد نجح عندما اختار الركوب في السيارة، لأن مدينة لا تعلم سبلها قد تسقط فيها، وهذا يرجع لخبرته ومعاملاته التي كان يفعلها في السابق، مع أغلب الفاسدين، وعلى أية حال فقد وصل وساعة المحطة كانت تشير الى الثالثة مساء، فذهب يأخذ تذكرة الرحلة وينتظر قدوم القطار، ولحسن الحظ أنه لم ينتظر كثيرا إلا دقائق قليلة، وإذا به يركب حينما توقف وفتحت أبوابه.. الجو كان ساخن في ذلك الوقت، الناس مسرعة وكأن الموت يلاحقهم وفي الحقيقة هو كذلك، بما فيهم ديغا كان يتمنى أن يصل سريعا الى بيته بالمال، الذي جناه من صفقة اليوم، خاصة وقد أوشك مفعول الدواء الذي أخذه قبل أن يسافر، على الزوال.. فهو مذ دخل عالم الترويج وهو في أحوال مذهب فيها العقل تقريبا، مثل حالة الرحلة أو البيع، لم يكن يفكر في النتائج، بقدر ما كان يفكر في مقدار المال والوقت، لقد كانت فلسفته غريبة وهي –اليوم كيف سأجني المال وكم من الوقت سأحتاج– في الحقيقة هي حكمة جميلة وقوية، لكن عندما يستعملها المرء في الحرام، تصبح دون قيمة، ولا طعم فيها، حتى وإن كان المال كثير والشعور أكثر، لأن المألوف يخالف الواقع، وحبذا لو كان المرء

يجري وراء الحلال جريا، إذ فيه الشعور بالاطمئنان، وفيه جمال المال، وبه يتحقق السلام، وهذا لا يعتمد على وسيلة كبيرة أو مشروع ضخم، بل وسائل متاحة فقط، تنافي الطمع وتصدق بالقناعة، فالإنسان الواعي يدرك أن في الزيادات عواقب، وفي النقائص أعمال، ولا يحدث هذا دائما لكن على الغالب، فالوزن في القسط، والتعامل مع الأشياء بإحكام وقوانين إلهية، ومبادئ أساسية توافق المنطق، وإثر ما قد حدث مما سبق، فقد وصل ديغا الى أمستردام، بعد فوات ساعتين، وها هو ينزل من القطار ويخرج الى الطريق العام، كانت الشمس ساطعة في ذلك الحين، حرارة الجو مرتفعة، فما كان عليه سوى أن اشترى قارورة ماء، وقام بسكبها على رأسه حتى يبرد، وبعد أن توقف مدة لا تتعد سبعة دقائق، قام بإيقاف سيارة أجرة ركب فيها وأعلمه بمكان بيته، ثم ساد صمتهما وذهب كل واحد يفكر في همه، ولا تسمع إلا صوت الراديو والأخبار الغير مهمة، في تلك اللحظات. العجوز في اللحظات التي دخل فيها الضابط مع أعوانه يفتش بيت ديغا، كانت قد شاهدت الموقف، فخافت وزاد قلقها عليه، فما كان عليها سوى أن وقفت بجانب النافذة تنتظر قدومه حتى تخبره بما جرى، لكن لم تكن تعرف أن العميل يراقب تحركاته من يوم أطلق سراحه، الحاصل أنه عندما وصل الى بيته لم يلاحظ شيء، فنزل وأعطى ثمن الأجرة له، وراح يفتح بابه.. وإذا بها تناديه من النافذة بصوت عادي

ديغا.. ديغا.. فاستدار خلفه وفتح عينيه فجأة، ثم ترك الباب وذهب الى دارها يدخل عليها:

– مرحبا

– لقد كانت الشرطة هنا

– وهو مصدوم، مستحيل، لماذا؟

– لقد دخلت بيتي وفتشته وسألني الضابط عنك

يتحول لون وجهه وينمو القلق في داخله:

– ماذا يريد؟

– قال لي أين ذهب عندما تركك مع السائق

– كشف أمرنا؟

– أظن ذلك لقد وجدوا دوائي وأخذ وصفة الطبيب معه، ثم دخلوا بيتك وقاموا بتفتيشه، هل تخبأ فيه شيء؟

اختلط عليه الأمر بعد أن فوجئ بالخبر، وراح يحاول الخروج من المأزق.. حتى يرى ما إن وجدوا المادة أم لا، لكن سرعان ما إن جاء العميل الى بيت الجارة يدق الباب، فتوقف ولم يشأ أن يفتح له، لأنه كان يعرف أنه مراقب:

– من؟

– افتح الباب

– قلت لك من؟

– افتح الشرطة

العميل كان وحده في تلك اللحظة، لكنه أعلم الضابط بعد أن شاهده وهو يحمل كيس معه، وأنه وصل الى مقره، فطلب منه أن يطوقه، وسيأتي على جناح السرعة للقبض عليه. وبعد أن أخبرته الجارة، أدرك أنه محاصر، فذهب الى المطبخ وألقى بالمال أرضا، ثم حمل سكين كبير له شكل كالرمح، وفي الوقت الذي تيقن فيه الشرطي أن الباب لن يفتح حطمه ودخل عليه، لكن سرعان ما أمسك بالعجوز ووضع السكين على عنقها:

– لا تقترب وإلا قتلتها

– وهو يتوقف، لا تفعل سلم نفسك

– لا ابتعد سريعا

– وهو يحمل سلاحه موجه صوبه، أنظر أنا أنزل سلاحي، هيا أنزل السكين لا تكن جاهلا

بقيت صامتة، بسبب الذعر الذي أغلق فمها، وماهي الا لحظات تتكلم بصوت خافت:

– ديغا انزل السكين

– لا حتى يتركني أخرج.. هيا لن أعيد الكلام

وبينما العميل يقف في طريقه حتى لا يهرب، وإذا بسيارة الشرطة تأتي مسرعة فتتوقف في الحي، ينزل أعوان الشرطة فينتشروا في المكان وفيهم الضابط.. يجري باتجاه بيت الجارة، وهو يرى الباب مفتوح، والشرطي في الرواق يكافح، وها هو ذا يدخل مباشرة فوجده يمسك بالعجوز، والسكين على رقبتها، فيقترب بعد أن أرجع العميل خلفه:

– لا تقلق أتركها وسنساعدك هيا

– وهو يضغط بالسكين على رقبتها أكثر، دعوني أذهب، لا أريد الذهاب معكم

– يقترب ببطىء ويحاصره بالكلمات، ليس لديك سبيل، إن قتلتها لن تفلح، على الأقل دعها تنعم بحياتها، سوف تخسر مرتين

وهو متوتر يفكر هنيهة في جارته، التي وقفت معه في الحرام:

– سأقتلها بسببكم وإلا لما أقتلها!

– يخفض المسدس، أنت السبب أنظر الى يدك قبل أن تتلطخ بالدماء

وهي ترتعد في مكانها:

– دعني بني

– يكاد يصل إليه، اهدأ ديغا.. اهدأ لا تكن أحمق، سلم نفسك، سنساعدك

وبعد أن شعر بالندم وذروة الظلم، أدرك أنه سيتحمل المسؤولية أكثر، فتركت نفسه السكين يسقط الأرض، ثم رفع يديه الى الأعلى، وها هي العجوز تجثو على ركبتيها، وتمسك رقبتها بيديها، وإذا بالضابط يدفعه على الحائط بشدة، ثم يلحق العميل يقيد يديه، يفتش جيوبه كلها فلم يجده يحمل شيئا ممنوعا، حتى وصفات الطبيب عندما قام المروج بإخراج الدواء من الصيدليات بعثرها، ورماهم في إحدى قمامات الرصيف، وعندئذ ذهب مسرعا يدور في غرف البيت، فوجد في المطبخ الكيس الذي جاء به من ماستريخت، فرجع يقدمه للضابط.. وبعد أن علم ما فيه تفاجئ:

– من أين لك هذا...؟

– مالي كسبته بيدي

– وهو ينظر فيه، لا أعتقد أنك تعمل جنرال حتى يكون لك كل هذا المال

لم يرد عليه ديغا، ثم أخرجه العميل يزج به في سيارة الشرطة، كان الأعوان وقتها قد تجمعوا وركبوا فيها، وها هو يحمل الكيس في يده يكلم العجوز قائلا لها:

– ارتاحي سنستدعيك

الشبكة ورأس الحربة

وعندما أكمل سليم وهيلينا زوجته وابنها مجيد العشاء، في أحد مطاعم أمستردام الراقية، قرروا الذهاب الى حديقة الألعاب، الجدة في ذلك الوقت كانت متعبة، وليس لديها القدرة في الذهاب معهم، فتركوها في المنزل على حالها، الساعة في سيارته كانت تشير الى العاشرة مساء، في هذا الحين ركب واستقر في مقعده، وها هي زوجته تأخذ المقعد الآخر، بينما الطفل ركب من الخلف، وجاء في منتصفه، وظل ينظر الى أمه وأباه، وهما يتحاوران دون مشاكل مخبأة في دواخلهما. الشارع ....ع الذي كان يتواجد فيها المطعم كان لا يبعد عن الحديقة كثيرا، حوالي عشرة دقائق بالسيارة، وإذا به يشغلها ويخرج منه الى الطريق الرئيسي، الجو كان دافئ جميل، الأضواء متوهجة، وكذلك أضواء السيارات، الطريق الذي قصده كان مكتظ، ولم يكن له حل في ذلك إلا أن يصبر ويسير ببطئ، الحياة كانت في مكان موت، وفي مكان آخر حياة، وعندما اجتاز ازدحام السيارات.. دخلوا الى شارع الحديقة، وهاهم يتأملون وينظرون من بعد مسافة، الى الألعاب التي كانت مشتغلة، وبها أضواء ذات ألوان متنوعة، العجيب في الأمر أنه كان لا يغلب لون لون آخر، لقد كانت كل الألوان متصلة ببعضها البعض، ومتقابلة ذات رونق وجمال، الحديقة كانت تضم الكثير من الألعاب الكبيرة والصغيرة، بها أشجار عالية خضراء، ومشتلة

صغيرة أخذت جزء منها، كان القائمين عليها يزينون بها المكان، وعلى جزء آخر كان يوجد فيها محلات صغيرة، بسلع كبيرة مرتبة ومنظمة، على منهجية وطريقة واحدة، مثلجات بمختلف أنواعها، جيش من الأطفال، كل طفل برفقة والديه أو قريب يقربه، في منتصفها كانت توجد كراسي ونافورة دائرية، يخرج منها الماء بدفعات متساوية، في وسط البركة كان يوجد حوت ملون وغير ملون، عادي، المنظر كان وكأنك تراه في النهار، لأن المكان كان منيرا مليئا بأضواء الإنارة، ومع دخولهم باب الحديقة راح يوقف السيارة في أحد الأماكن الفارغة هناك، في الساحة المخصص للزائرين، كان مجيد وقتها قد أمسك بيد أباه وأمه بعد أن نزلا منها:

– أبي، أمي، المكان رائع اليوم

– نعم بني أنتم الذين جعلتموه رائع

– الأم تبتسم وتمشي ناظرة في أشكال الحديقة، لا أريد اللعب اليوم سآخذ مقعد في الميدان بجانب النافورة وأجلس

يرد عليها ويسأل ابنه:

– كما تشائين، مجيد ماذا تريد أن تلعب؟

– أريد الركوب في سفينة نوح

– ألا تخاف منها؟

وهو ينظر في عينيه:

– ولما أخاف ستركب معي أبي، أليس كذلك؟

– وهل سنترك أمك وحدها؟

– الزوجة تنظر الى زوجها ومجيد يرد، لا يا أبي

وإذا به يطلب منها أن تركب معهما:

– إمي اركبي معنا..

– لا أنا أخاف المرتفعات

– لا تخافي نحن مع بعض

يحرك يد أمه:

– هيا اقبلي أمي

– سليم يمازحها، يا خيل الله أركبي

– تنظر فيه، حسنا لكن الحذر

– نعم علينا أن نحذر

عندئذ ذهب يشتري تذاكر اللعبة، وقد كانت السفينة لا تبعد عنهم إلا أمتار، الناس كانوا راكبون فيها، وتراها شبه ممتلئة، يحيط بها أطفال ورجال ونساء، ينتظرون دورهم، فعندما اشترى البطاقات لحق بأهله، وبقوا واقفين عندها، حتى توقفت ونزل الغالبية منها، ثم ركبا الآخرين وربط الكل حزام الأمان، الابن كان قد ضمن الأمان وهو راكب بينهما، أما هما فقد كانا على طرفيه، وها هي السفينة تبدأ بالتحرك من جديد بعد فوات ثلاثة

دقائق.. وتروح أسفل وأعلى.. ببطىء.. ببطىء.. ثم أعلى وأعلى، كان الصوت في الأول لا يكاد يسمع، ثم مع مرور الوقت يرتفع الصوت وتسمع من حين لآخر، صراخ الخائفين وبكاء الأطفال، كلما انخفضت وعلت بقوة، سليم كان قبل أن تبدأ السفينة في التحرك بقوة قال لابنه:

– لا تغمض عينيك وانظر الى ما تمسك

– إن شاء الله أبي

– الأم صامتة لا حركة، الله المستعان

– السفينة تغير سرعتها، تشجعا..

وبعدما انتهت مدة اللعبة، والكل يمسك قلبه، بدأ الهدوء يعود الى النفس والحال يتحسن أكثر فأكثر، هيلينا ذهبت مباشرة الى حيث كانت تذهب من قبل واستقرت.. وها هو سليم مع ابنه يشده من يده:

– أنت بخير؟

– دوخة خفيفة أبي

– وهما واقفان، هيا تعال اجلس مع أمك..

– تعطي له قارورة ماء صغيرة، أشرب ستتحسن

الشاهد أنه بقي واقفا على قدميه يمسد على رأسه ووجهه، وكأنه يمسح آثار التعب، وفجأة يسمع صراخ رجل كان مستلق على الأرض، يديه الى الخلف، يقبضه عميل تابع لجهاز الأمن، كان يبدو وكأنه يراقبه منذ فترة،

وها هي سيارة سوداء خاصة بالشرطة ضخمة تتسع لسبعة أشخاص تدخل الى الحديقة، من بابها الكبير وتتوجه اليهما.. وكأنهم كانوا يسيرون وفق خطة وعلى تواصل قبل أن يدخلوا، آخذين طريق رئيسي كان يقود الى ساحة الحديقة، حيث يتم فيها اصطفاف السيارات واستراحة الزوار فيها، والتجوال، الشرطة عندما كانت أمام الباب، أمرت الحارس بإغلاقه، وماهي إلا لحظات ينزل المحقق ومعه الضابط، وأربعة من الأعوان، فينتشروا في الساحة، العميل في ذلك الوقت أخذ الرجل وزجه في السيارة، وبقي يراقبه لأنه وجده يحمل حبات من البريجابالين، وطرف طويل على شكل عود خشب، من المخدرات –الزطلة– أما بعض الحاضرين كانوا ينظرون محتارون حيال ما يحدث، لأنهم لم يفهموا شيء لحد الساعة، وقد كانوا قريبين من الموقف، لكن سرعان ما أزالت الشرطة الفرح من وجوههم، أما البعض فلم يهتموا إطلاقا، لأنهم كانوا في عالم اللعب والمرح، وبعد انتشار الأعوان.. راح يوقف أشخاص مشبوه فيهم والمحقق يفتش واحد وراء واحد، وكأنهم يبحثون عن شيء بناء على معلومات قد قيلت لهم، ومع مرور الدقائق وإذا بشاب أسمر في نحو الخامسة والعشرين، رشيق، ذو لباس أزرق، مخطط بالأسود، وحذاء صلب يشبه حذاء الجنود، يسرع ويحاول الخروج من الحديقة والابتعاد عن الشرطة، لكن سليم وقتها رأى كل شيء، ففهم ما يدور.. خاصة عندما أغلق الحارس الباب، وحين رأى

قبضة الأسمر مضمومة، وكأنه يخفي شيئا فيها، فيراقبه وهو يقترب من المكان الذي كان يتواجد فيه مع أهله، بخطى متفاوتة شبه سريعة، ودون أن يشعر أحد بذلك، وهذا ما زاده تيقنا على أنه يخفي شيئا في يده، وما أظهرته صفاته وقلق نفسه، الحاصل أنه في تلك اللحظات، وصل ومر عليه وعلى أهله، وكان بينهما مسافة قليلة فقط، حوالي ثلاث أمتار، فطلب من زوجته وابنه البقاء حتى يرجع بعد حين، دون أن يشعرهما بشيء أدركه، فراح يمشي من ورائه بخطوات سليمة.. لكن سرعان ما أحس به المشتبه به، لأنه كان كل ما يمشي قليلا ينظر خلفه والى الشرطة، عندئذ زادت حركات قدميه بعد أن شاهده ينظر اليه ويتبعه، الأمر العجيب أنه ازداد قلقا وخوفا، لأنه ظن أنه عميل شرطي أتى برفقتهم، وماهي إلا لحظات صار يجري، فبدأ سليم يجري من ورائه أيضا، وها هو يكاد يقترب منه، ولم يكن بعيد عنه، فلاحظ أعوان الشرطة ذلك أولا، ثم الضابط والمحقق، لأنهما كانا مشغولين بأحد المشبوهين. للعلم فالحديقة كانت كبيرة والمطاردة لم تكن طويلة، فبعد دقيقة لحقه فدفعه من الخلف، ثم سقط في مكانه، لكن لم يستسلم، فما فعله في ذلك الحين راح يلقي مجموعة من الحبوب بعيدا عنه، لأنها كانت منزوعة الغلاف كحبات فول، كان يريد إنقاذ نفسه وهو في الحقيقة يقوم بتدميرها، فبعد ذلك وهو واقف عنده

يصل أحد الأعوان على السريع فيمسكه، ثم يلحق الضابط والبقية فيشاهدونه. وها هو ينظر اليه:

- هذا أنت مرحبا
- مرحبا حضرة المحقق
- ساعدتنا شكرا جزيلا كنا نبحث عنه بالذات
- العفو، يبدو أنه يبيع ممنوعات

الضابط في ذلك الوقت كان قد عرفه، فشكره أيضا على عجلة، وإذ بالمحقق وهو ينظر الى صاحب الحبوب يكمل معه:

- نعم صحيح إنها شبكة إجرامية كشفنا خططها وهذا تابع لها
- شبكة إجرامية ماذا تقصد؟
- أمسكنا بمروج التشوشنة والمؤثرات العقلية، تذكره!
- تذكرته إنه خطير ذلك المنحرف

وهو يدعمه:

- لا يهم لقد اعترف بكل شيء، وقمنا بإلقاء القبض على طبيب أخصائي عظام، كان يدعي العمل بناء على قوانين الدولة، لكن تبيّن في النهاية أنه كان يزوّر وصفات طبية تحت غطاء قانوني، لتمويل مجموعة إجرامية، بهدف تسهيل التعاطي وترويج المواد المخدّرة

- مشكلة كبيرة وحلت الظاهر أنه رأس الحربة ولولاه كان صعب عليهم توفير هذه الممنوعات
- يوضح له ويتعمق، الكل كانوا استغلاليين يستغلون كهول وعجائز جهلة من أجل أخذ مواد كثيرة ومال أكثر، حتى بعض العمال الذين يعملون في بعض الصيدليات كانوا متورطين في البيع لهم، بطريقة غير قانونية

فهم القصد:

- همهم المال لا يهمهم الإنسان، الله المستعان
- نعم صحيح، اعتني بنفسك